الشعائر الحسينية

الإمام الشهيد

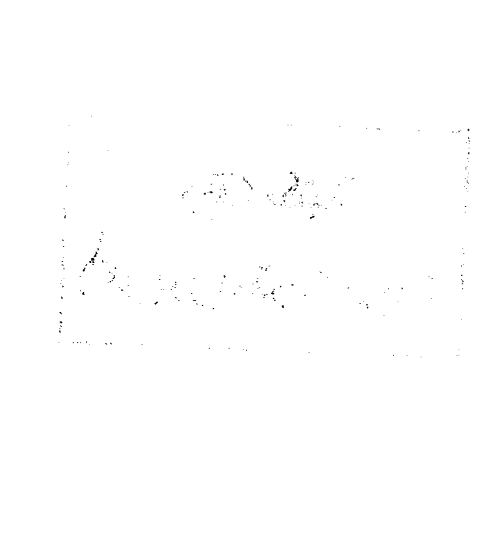
السيد حسن الشيرازي

الطبعة الخامسة

السيد حسن الشيرازي

الشعائر الحسينية





الشعائر الحسينية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على محمّد وآله اجمعين ، واللعن على أعدائهم إلى يوم الدين .

«يا أيها الذين آمنوا ، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول،وأولي الأمر منكم ، فان تنازعتم في شيء، فردوه إلى الله وإلى الرسول، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا».

النساء / ٦٢

« ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى، من بعد ما بيناه في الكتاب، أولئك يلعنهم الله ، ويلعنهم اللاعنون».

البقرة / ١٥٤

« ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه ، وهو الدّ الخصام * واذا تولى سعى في الارض، ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد * واذا قيل له : اتق الله أخذته العزّة بالاثم ، فحسبه جهنم ولبئس المهاد » .

البقرة / ٢٠٠ - ٢٠٣

« ان الذين اتقوا ، اذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون * واخـــوانهم يمدّونهم في الغي ، ثم لايقصرون » .

الاعراف / ٢٠٠ - ٢٠١

مقدمة

لقد انبثق الاسلام في منطقة توفرت فيها المؤهلات لأداء رسالة الاسلام الى العالم ، فقد كانت المنطقة وسطى تمثل سنام الارض ، وكانت متحررة من السلطات القوية التي يكون في وسعها القضاء على الاسلام في مهـــده ، وكانت المنطقة غنية بالخامات البشرية التي توفرت فيهـا الطاقات الكفاحية كما لم تتوفر في سواها ، فكانت أجدر المناطق بالاسلام . ولكن الظروف التي تفتح فيها الاسلام كانت ظروفاً ملغمة خلفتها العهود الجاهلية مثقلة بركام من العقد والمشاكل . فكان على الاسلام ان يتأهب لمواجهة التحديات المندلعة في نفس المنطقة ومعالجة العقد والمشاكل ، ليس بالعنف والارهاب وانما بالخلق العظيم والموعظة الحسنة .

غير ان القتلة المستهترين ، الذين احتلبوا لبان الرماح في أحضان امهاتهم ما كانوا ليرحبوا بالاسلام بسلام ، وما كانوا ليتخلقوا بأخلاق الاسلام ، بل كانوا ليمتشقوا السيف على

الاسلام قبل الانضواء تحت لوائه ومنافسة ابطاله بعد الاندماج في ظله ، فكان على زعمائه ان يقوموا بأحد امرين : اما ان يشهروا السيف في وجوه مناوئيهم ، ويوسعوهم تقتيلا ، واما أن يواجهوا التنافس بالتضحية بمناصبهم وانفسهم فاختاروا الامر الثاني ، لكونه اكثر ملائمة مع روح الاسلام الذي جاء رحمة وسلاماً .

وهنا سؤال لا بد من الاجابة عليـه ، وهو :
ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يعرف ابناء قومه افضل من غيره ، لماذا كان يقبل المنافقين في صفوف الاسلام ، حتى يثيروا المشاكل امام الاسلام في حياته وبعد وفاته وقد كان في غنى عنهم ؟

والجواب: انه لم يكن من صالح النبي صلى الله عليه وآله وسلم – منذ فجر الاسلام – ان يقبل المخلصين فقط ويرفض المنافقين وانما كان عليه ان يكدس جميع خامات الجاهلية ، ليسيج بها الاسلام عن القوى الموضعية والعالمية التي تظاهرت ضدّه ، فكان يهتف : « قولوا لا اله الا الله تفلحوا » ثم يرحّب بكافة الذين يقولون : لا اله الا الله ، ولو كانوا يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم . وهذا التسامح الواسع في قبول المسلمين اتاح لكل من في قلبه مرض ، أن ينخرط في صفوف المسلمين، فتسللت العناصر الجاهلية الى الاســلام ، بجميع احقادها واطماعها واهوائها ، وهذه العناصر استغلت الاسلام كوسيلة

ناجحة لبلوغ الاهداف التي عجزت الوسائل الجاهلية عن التوصيل اليها ، واتخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم هـــذه العناصر لضرب اعداء الاسلام .

وفي نفس الوقت ، الذي كانت هــذه العناصر تدافع عن الاسلام ضد العدو الخارجي ، كانت بنفسها تنخر في كيان الاسلام ، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يجند طاقاته المادية والمعنوية ، لاستدراج هذه العناصر في حظيرة الاسلام ، وكان القرآن يضغط على المنافقين ، ويلقي عليهم الاضواء الكشافة ، ويعريهم امام الرأي العام، علهم يضغطون بالنفاق الى اعماق قلوبهم، ويعملون كمسلمين ، غير انهم مردوا على النفاق ، وكان دخولهم في الاسلام نوعاً من الانتهازية، فلم يكونوا يريدون الاسلام للتحول من واقع متفسخ الى واقع صحيح، وانما اختاروه واجهة لنيل اغراضهم الجشعة فحسب، فكانت قلوبهم اغلظ من انيتسلل اليها ولو بصيص منالايمان.

ولم يكن للنبيصلى الله عليه وآله وسلم أن يرفضهم ، والا لبقي هو وعلي وسلمان وابو ذرّ ، والعدد القليل من الصفوة المنتجبين ، ولبقي الاســـلام نبعاً صغيراً يتموج في سفوح «حراء» ، بينما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحاول ان يجعل من الاسلام قوة زاحفة تطوي الاديان والحكومات ، وتتسلسل في الاجيال حتى الابد ، يجبروت يجعل حلال محمّد

حلالاً الى يوم القيامة ، وحرام محمّد حراماً الى يوم القيامة .

وتحت هذا الضغط بين ضيق افق الجزيرة وثورة الاسلام اضطر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى قبول المنافقين في الاسلام ، وكانوا في الايام الاولى اعداءاً يسيرة ، غير انهم تكاثروا مع الايام ، وعلى اثر كثرتهم استطاع رؤوس النفاق ان يتسللوا الى المراكز القيادية ، فخبطوا في الاسلام خبطاً ذريعاً كاد ان يفارق واقعه ، لولا ان تداركه بطله العظيم : علي بن أبي طالب عليه السلام ، الذي قام بأدوار مختلفة خطيرة ، حتى اثبت تطفل المنافقين وبراءة الاسلام منهم ومن اعمالهم ، فأصبح لعلي بن ابي طالب عليه السلام حق الحياة على الاسلام مرتين: مرة عندما تواترت المؤامرات على الاسلام ، واسلم المسلمون نبيهم الى الاعداء ، فاخترط سيفه ، حتى اباد به كل من سوّلت له نفسه ضرب الاسلام ، ومرة ثانية حينما تسلل اولئك المتآمرون على الاسلام انفسهم الى الاسلام ، فتقمّصوه للقضاء عليه من صميمه ، بعد ما فشلوا في القضاء عليه من خارجه ، فجرد علي بن ابي طالب عليه السلام كل امكاناته ، لفصلهم عن الاسلام واعادته الى مجراه الطبيعي ، فحق القول : بأن الاسلام علوي مرتين .

ولكن ما هو الاسلام ؟ هل هو الذي تشاؤه مصالح الافراد والجماعات ؟ ام هو الذي انزله الله على نبيه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم لانقاذ الناس من الظلمات والويلات ؟

ولئن كان الثاني فان الاســـلام ليس سوى التشيع والتشيع ليس سوى الاسلام ، والاســـلام والتشيع اسمان مترادفان لحقيقة واحدة انزلها الله وبشّر بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . او ليس الله تعالى هو الذي انزل قوله : « يا ايها الرسول ، بلغ ما انزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، ان الله لا يهدي القوم الكافرين[1] » ؟ او لم يكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي رفع علياً يوم الغدير بين عشرات الالوف من المسلمين قائلا : « من كنت مولاه فهذا علي مولاه » ؟ ثم امر الناس بمبايعته والسلام عليه بامرة المؤمنين .

اذن ، فالرسول بشر بالتشيع يوم قال : « قولوا لا إله الا الله تفلحوا » ولكنه بدأ من القاعدة « يوم حراء » وبلغ القمة « يوم الغدير » غير ان التشيع اصبح في خطر بمصرع علي بن ابي طالب عليه الســـلام ، وهاج الطوفان يوم دخل معاوية الكوفة ، وانتشر الخوارج هنا وهناك ، يركزون قواعدهم على بغض امير المؤمنين عليه السلام حتى حفر الحجاج عشرين الف قبر في ظهر الكوفة بحثاً عن جسد الامام عليه السلام . وبلغ الطوفان ذروته يوم اعتلى يزيد بن معاوية منبر رسول الله ، وتربع على عرش الخلافة ، ليعاقر الخمر ويلاعب القرود .

---

(١) سورة المائدة ٧١ .

ويزيد مخلوق لم يخرج على سنن الخلافة والانسانية فحسب، وانما خرج على سنن البشرية ايضاً، حتى قال فيه عبد الله بن حنظلة: «والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا ان نرمى بالحجارة من السماء». فقد كان نهماً بالدماء والاعراض، ولوعاً بالصيد وتربية الحيوانات حتى رشحته صفاته لسياسة اصطبل لا لخلافة المسلمين، وأصبحت شهوته بترويض الكلاب والقرود مهزلة تجعله جديراً برئاسة البطالين من القرادين والفهادين، لا لقيادة امة فتية تضرب بأجنحتها في طبقات السحاب. وكان له قرد يدعوه «ابا قيس» فيلبسه الحرير المطرز بالذهب والفضة، ويركبه «أتانا» في السباق، ويحرص على ان يراه سابقاً مجلياً في الجيـــاد، وقد شجعه في احدى مسابقاته بقوله :-

تمسك ابا قيس بفضل عنانها فليس عليها ان سقطت ضمان
الامن رأى القرد الذي سبقت به - جياد امير المؤمنين - اتان

وان همته بالطراد - اذا كان لهواً وفراغاً - تشتد حين يكون في الطراد قرود وغزلان، وتتضاعف حين يكون الطراد لقيان وغلمان وتضعف حين يكون في نقع وفرسان، ولو كان دفاعاً عن الدين والدنيا فلما سيّر معاوية جيش «سفيان بن عوف» الى القسطنطينية لغزو الروم تمارض يزيد - للتخلف - حتى رحل الجيش، ثم شاع ان الجيش امتحن

بالجوع والمرض ، فقال يزيد نشوة بالتخلص من الأزمة :

« ما إن ابالي بما لاقت جموعهم بالفرقدونة من حمى ومذموم »
«اذا اتكأت على الانماط مرتفعاً بدير «مرّان» عندي ام كلثوم»

وسرى هاتان البيتان في الأندية سريان فضائح السلطات المجرمة في الشعوب المضطهدة ، حتى اضطر ابوه معاوية إلى إلحاقه بالجيش انقاذاً لسمعته وسمعة ابنه الغرّ .

وفي مثل هذا الوضع المتأزم لم يكن للامام الحسين عليه السلام إلا استخدام صلاحياته ، واستعمال حقه في الثورة ، حيث رأى المقدسات كافة أصبحت في خطر من رعونة هذا الفاسق ، حتى لم يبق أمل للاصلاح في ظل حكومته ، وبالفعل كاد ان يقضي على التشيع ، لولا أن تداركه الامام بثورته العارمة ، التي كانت لغماً جباراً ، نسف فأضاء العالم ، وخبط الحكم الأموي فانهار ، وأخذ التشيع يرتعش تحت الشمس ، ويتحفز للوثوب . فحق القول : بأن التشيع حسيني . وإذا كان الاسلام علويّاً والتشيع حسينياً ، يصح أن يقال بأن الاسلام الذي بذره محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، احاطه علي وغذّاه الحسين ، حتى كمل واستقام .

وكما أن كيان الاسلام ، كان يحتاج الى جهود محمد وعليّ والحسين حتى يستقيم ، كذلك الاسلام لايكمل في قلب ليس

فيه محمد وعلي والحسين معاً ، لأن تعاليم محمد انشائية ، وتعاليم علي تربوية ، وتعاليم الحسين امدادية ، وإذا لم تتفاعل هذه العناصر الثلاثة معاً لايبرز الاسلام الى الوجود ، ومادام لكل دور رئيس خاص،لايمكن الاستغناء عنه بدور غيره،فلايكمل اسلام عبد ليس له حبل ولاء خاص بالنبي والوصي والسبط الشهيد عليهم السلام .

وقد فاز أولئك النفر،الذين أدركوا محمداً وعلياً والحسين، فقاموا مع كل بدوره الخاص ، وأخـــذوا عن كل تعاليمه المباشرة ، وأما الأجيال المتأخرة ، التي لم تدركهم ، فلابد أن تعيش بامتداد تلك الشخصيات الواســـعة ، التي تحتمل الامتداد إلى أبعد أماد التاريخ والحياة .

فأما امتداد الرسول ففي قرآنه وآثاره وذكرياته ، وأما امتداد علي ففي نهجه وبطولاته ومواقفه ،وأما امتداد الحسين فبماذا يكون؟ لابد أن يكون امتداد الحسين أصعب من امتداد النبي والوصي ، لأن دور الحسين كان دور ثورة ، وامتداد الثورة يحتاج الى احياء الثورة بكل أبعادها ومرافقها في واقع الحياة ، لا بالحفلات والخطب والقصائد فانهـــا تصلح لانتاج عطاء الذكرى ، ولاتطيق انجاز فورة الثورة التي تكون امتداداً حقيقياً يقدر على أن يموج الحياة ويزلزل الارض ، حتى ترتعش رعشة البطولة ، وتنفض عنها العروش والتيجـان

الجائرة ، وتنتزع القيادات من الأيدي القذرة ، لتضعها في أيدي الذين لايريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً . فكيف يمكن امتداد ثورة الحسين ، بهذا النحو الواقعي ، حتى تقوم في كل جيل بما قامت به في جيل الامام الحسين عليه السلام ؟ الواقع أنه لايمكن امتدادها الحقيقي إلا بمجموع مايفعله الشيعة في بلادهم ايام العشرة الأولى من شهر محرم الحرام ، من المآتم الكثيرة الخاصة والعامة ، ولبس السواد ، وتسيير مواكب اللدم والسلاسل ، والتطبير والتمثيل . وكل ما يطور الحياة الطبيعية ، ويعقد عليها جوّ الملحمة الذي يعيد الى الاذهان واقع الثورة ، بكل ضجيجها وتوترها وانفعالها ، فهذه المجموعة المتعارفة من المظاهر والتظاهرات والشعارات ، هي التي تستطيع نقلنا من اجوائنا المختلفة إلى جوّ الثوره التي عاشها الامام الحسين عليه السلام في معركة كربلاء .

وثورة الامام الحسين عليه السلام ثورة نادرة . امتازت بها الأمة الاسلامية دون سائر الأمم . ولو كانت لبقية الأمم لا ستدرت منها طاقات تؤهلها للسيطرة على الأرض . ولكن الأمة الاسلامية تبخسها لهبوط مستوى الوعي في قيادتها . فلا تستفيد منها بالمقدار الممكن ورغم أنها تهدر هذه الطاقات المعنوية الهائلة يجب عليها ابقاء هذه الثورة حيـــة طريّة في واقعها . عسى أن تؤوب إلى رشدها في يوم من الأيام،فتستنتج مواهبها لبناء كيانها من جديد . ولو أن الأمة فرطت اليوم

بثورة الامام الحسين عليه السلام لأنها اعجز من ان تعتصر مواردها لحكمت على نفسها ومستقبلها بالدمار الشامل المحتوم ، إذ تكون قد سدّت على الأجيـــال الطالعة أغزر مواردها . حتى لو استيقظت يوماً من الأيام لاتقدر على النهوض . إذ لاتجد مقومات النهوض .

ولا أعدو الواقع إذا قلت بأن ثورة الامام الحسين عليه السلام اعظم امانة امتحنت بها الأمة الاسلامية . فحافظت عليها بالضحايا الكثار ، حتى تناقلتها أجيال الأمس وسلمتها الى هذا الجيل الملغوم ، فيجب على هذا الجيل أن يحافظ عليها بجميع امكاناته لتسليمه إلى أجيال الغد .

وعندما حاول الاستعمار هضم الأمة الاسلامية بادر إلى انتدال مصادر القوة فيها ، فانتدل منها القرآن، و انتدل منها الحج ، وشاء أن ينتدل منها ثورة الحسين ، لكنه لم يقدر على انتدالها ، وحاول مسخها وتشويهها حتى تشل عن التفاعل والانتاج ، فاستعصت على المسخ والتشوه لوجود مصادرها الأصيلة ، فانحسر الاستعمار وبقيت ثورة الحسين أقوى من أن تصادر او تشوّه .

وقد سلمت الامة جميع قواعدها المعنوية الى الاستعمار وانهارت مقاومتها في كل معركة ، إلا ثورة الحسين عليه السلام ، فإنها القاعدة الوحيدة التي لم تمكن من نفسها الاستعمار . ولازالت

تقاومه . فمن منابرها ينطلق صوت القرآن ، وفي مواكبها تجري خصال محمد وعلي والزهراء وفي ظلها يعيش كل من هدى الله قلبه للايمان ، فشاء أن يتفيأ ظلال الاسلام .

ولو الغينا ثورة الحسين عن حياة الأمة لم نجد لها قاعدة تتجمع فيها لتواصل مقاومتها للاستعمار .

وهذه الحقيقة اقضت مضـــاجع المستعمرين ، فراحوا يجندون قواهم ويركزونها على هذه القاعدة الجبارة التي ابى الله لها أن تستسلم او تهادن ، فخسئت هجمات المستعمرين مفلولة خوّارة ، وبقيت هي أكثر توهجاً واندلاعاً ، فجعلوا يبحثون عن سلاح جديد يهد هذه القاعدة التي لم يؤثر فيها أي سلاح ، واخيراً وقع اختيارهم على الأحزاب الاسلامية – التي تكونت منذ تكونت باشارة الاستعمار ثم لم تخدم سوى المستعمرين – فحركوها لضرب ثورة الحسين ، فهاجت الأحزاب الاسلامية مرة واحدة – وكأنها على ميعاد – تحارب الأمة والاسلام في قاعدتها الأخيرة ، وهي ثورة الحسين عليه السلام فاذا بهذه الأحزاب تدعى : أن ثورة الحسين عليه السـلام هي الصخرة الوحيدة في سبيل تقدم الاسلام ، وهي تعلم : أن ثورة الحسين عليه السلام هي القلعة الوحيدة الصامدة التي تمنع انحسار الاسلام وتقدم الاستعمار ، والأحزاب التي تتلقى الإيحاء والأموال من المستعمرين – بلا واسطة او مع واسطة – ولايمكن أن تخالف الايحاء مادامت تحاذر أن تنقطع عنها الاموال . وحيث أن

هذه الاحزاب لاتحارب ثورة الحسين لعقيدة تناقضها ـ كما تفعل الاحزاب الإلحادية ـ وإنما تحاول تنفيذ إرادة المستعمرين فيها لتقبض عمولتها ، لاتستند في حربها الى دليل معين، وإنما تنتهز كل حق وباطل لضرب هـذه الثورة المقدسـة ، فمرة تستدل بالآراء الشاذة لبعض المؤلفين،بينما هي لاتعترف بأولئك المؤلفين ولابالمراجع الكبار إلا للتستر بأسمائهم فحسب،وطوراً تتذرع بأن الأعداء يضحكون منا،فيماهي لاتجدران يضحك منها الأعداء والأصدقاء عندما جعلت من نفسها أصابع طيعة للاستعمار .

بالاضافة الى أن هذين الرأيين فاسدان :

فأما التمسك بالآراء الشاذة لبعض الكتاب ، فهو غير صحيح إذ لم يثبت براءتهم عن الانخداع ، على أن للكتاب ولكل صنف من الناس آراء شاذة ، غير أن أصحاب المواهب المتزنة لا يتبعون سوى الآراء الصائبة ، وأما الذين في قلوبهم مرض فهم الذين يتبعون الآراء الشـاذة ، وكل شاذ يلائم اهواءهم ، والاحزاب حيث تكون بؤرة الشذوذ التي لا تجمع إلا المرضى المزمنين ، لا تحاول أبداً أن تظفر بالحق ، وإنما تهتم بمبررات لأمراضها المزمنـة ، فتبحث لآرائها الشاذة عن ملجأ وتضرب هنا وهناك سعياً وراء الشذوذ ، فإذا وجدت في رجل سياسي رايا شاذاً صفقت له ، وإذا عثرت في كاتب على رأي شاذ ركمت أمامه وتباشرت بكتابه الذي يعرض ذلك الرأي الشاذ ، وإذا ظفرت في مفكر على رأي شاذ

تنادت باسمه ، ورفعته فوق مستواه، فهي عندما تمتص بهؤلاء وتهمل زملاءهم وأساتذتهم ، انما تأخذ بتلك الآراء الشاذة لهؤلاء ، وتهمل بقية آرائهم المستقيمة ، لأنها كالذباب الذي يمر على جميع الأعضاء السليمة مر الكرام ، فإذا وصلت الى قرحة طنت وعكفت عليها

وأما ترك الشعائر الحسينية لضحك الأعداء منها فهذا يكشف عن انهزامية بالغة في نفوس هؤلاء الحزبيين ، فهل ضحك الأعداء يبرر التخلف عن ديننا وشعائرنا ؟ ولقد كان الجاهلون والمنافقون ألذع سخرية وأكثر ضحكاً من الاسلام ، غير أن النبي العظيم لم يعر سخريتهم من الاهتمام ما كان يعيرها لطنين الذباب فمضى في سبيله لا يلويه شيء حتى انتصر، وألقى القرآن ضوءاً على واقعهم المتفسخ بقوله : « .. وإذا لقوا الذين آمنوا ، قالوا : آمنا ، وإذا خلوا الى شياطينهم ، قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزؤن * الله يستهزء بهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون[1] » . ولقد سخر اليهود بالأذان وسخر المشركون بالسجود ، فلم تثن من عزم المسلمين شيئاً ، بل ضربوا على ذلك النهج المستقيم ، غير مبالين بعثرات غيرهم ، حتى ادخروا لنا التشيع عبر الزوابع الهوج .

وحيث أن أعداء التشيع ما ملكوا منذ اليوم الأول سلاحاً من العقل والدين لمحاربة التشيع ، لم يجدوا بداً من

---

(١) سورة البقرة (١٤ – ١٥) .

التوسل بالاستهزاء ـ الذي هو سلاح المبطلين ـ لمطاردة التشيع ، غير أن الحق ـ الذي مثله التشيع أكمل تمثيل ـ أقوى من أن يهزمه الاستهزاء ، وكان الشيعة أصلب من أن ينال منهم الحديد والنار ، فكيف بالاستهزاء ، وكان أئمتهم يشجعونهم على هـذا الصمود ، وقد دعى لهم الإمام الصادق عليه السلام بقوله : « ... اللهم إن أعداءنا عابوا علينا خروجهم إلينا فلم ينههم ذلك عن الشخوص إلينا خلافاً منهم على من خالفنـا » . وقد دعى النبي صلى الله عليه وآله وسلم على من يستهزيء بالشيعة على إقامة شعائرهم في حديثه لأمير المؤمنين عليه السلام قائلاً : « .. وان حثالة من الناس يعيّرون زوّار قبوركم كما تعيّر الزانية بزناها ، اولئك شرار أمتي لا أنا لهم الله شفاعتي يوم القيامة » .

ولكن ، ما ضرّ الذين يقيمون شعائر دينهم أن يسخر منهم الجاهلون ما داموا يعلمون : أنهم على حق وأن أعداءهم على باطل ولقد شكوا عند الإمام الصادق عليه السلام استهزاء الأعداء بهم فقال ـ مهدءاً روعهم ـ : «والله لحظهم أخطاؤا، وعن ثواب الله راغوا ، وعن جوار محمد تباعدوا » .

وقال له ذريح المحاربي : إني إذا ذكرت فضل زيارة أبي عبد الله عليه السلام ، هزأ بي ولدي وأقاربي ، فقال عليه السلام: « يا ذريح دع الناس يذهبون حيث شاؤا، وكن معنا».

وما قيمة الاستهزاء ، حتى يميل الانسان عن خطه الصائب

من أجله ؟ وما قيمة المستهزئين أنفسهم حتى يعير لهم الانسان اهتماماً ؟ ولو كانت لهم قيمة لعلموا ما ينفعهم وينفع الناس ، ولكن حيث لا قيمة لهم ولا هدف تواضعوا بأنفسهم فرضوا أن يكون مستهزئين ، فحسبهم هذا الاعتراف العملي بفشلهم وبطلان اتجاههم .

بالإضافة الى أن موقفنا من الشعائر الحسينية يتركز على قاعدة فكرية وطيدة، ليس لنا الانحراف عنها،وإن تظاهرت قوى العالم ضدها ، صحيح ان علينا أن نكف ضحك الأعداء عنا ، ولكن بماذا يجب أن نكف ضحكهم عنا ، هل بالتخلي عن واقعنا أو باستعراض فضائحهم حتى ينكمشوا على مخازيهم ولا يتطاولوا على مقدساتنا ؟ وهل لنا أن نأخذ بما يشاؤه الأعداء أو بما يمليه علينا واقعنا؟ ثم هل الأعداء أقوى تنكيراً أم ابطال الاسلام؟ وإذا كانت الأجوبة على هذه الأسئلة تؤكد على الأقسام الاخيرة من شقي الترديد في الأسئلة فلماذا يضطرب موقفنا بمجرد ضحك الاعداء ؟ وإذا كانت ثقتنا بالأعداء أكثر من ثقتنا بأئمتنا، فعلينا أن ننبذ الاسلام كله ، ونعتنق مباديء الاعداء ؟! وإن كنا نؤمن بأئمتنا أكثر من اعدائنا فلماذا نتبع افعال اعدائنا ؟ ولماذا لا نتمسك بتعاليم أئمتنا ؟

وبعد هذا وذاك ، علينا أن نعلم : أن الاعداء يتربصون بنا ، فيشجعون التوافه ويضحكون على العظائم ، حتى نترك العظائم ونعيش التوافه ، والاعداء عندما يضحكون من شيء

فإنما يضحكون بعقولهم لا بعواطفهم، فلا يضحكون ابداً على نقاط الضعف لأنهم لا يخافون منها ، وإنما يضحكون دائماً على نقاط القوة لأنهم يهابونها ، فيحاولون القضاء عليها ، فعلينا ـ متى اردنا السيادة ـ أن نستلهم واقعنا بنظرة مستقلة تعي مكاسبها وخسائرها ، ولا نلتفت مطلقاً الى ما يفعله الاعداء .

والواقع أن الشعائر الحسينية ـ التي تمثل امتداد ثورة الحسين عليه السلام ـ لا تهـــدد مصالح المستعمرين في بلادنا فحسب ، وإنما تهدد مستقبل المستعمرين انفسهم وفي بلادهم ايضاً، فمن الطبيعي أن يحاولوا إلغاءها بألف طريق وطريق، وخلف ألف واجهة وواجهة . ومن وراء ألف مبرر ومبرر ، ولكن هذه الإرادة الاستعمارية القوية لا تفرض علينا أن نقف مكتوفي الايدي إزاءها بل علينا أن نقف أمامها بإرادة أقوى وأصلب منها حتى نهزمها ولا ننجرف بها .

إن علينا إزاء هذا الموقف الاستعماري واجبـان : واجب الاحتفاظ بثورة الحسين عليه السلام لأنها تمثل قمة واقعنا . وواجب الاحتفاظ بثورة الحسين عليه السلام لأنها تمثل إرادتنا المستقلة . كما يكون علينا في مثل هذا الموقف : أن نكون بنائين لا هدامين ، فنبني طوابق جديدة فوق مجدنا الذي بناه آباؤنا ، ولا نهدم صرحنا المشيد ، اغتراراً بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماءاً ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه .

إن المستعمرين لا يحرصون على تحضرنا إلا بمقدار علمهم باستحالة استعمارنا إلا عن طريق حضارتهم ، ولا يشفقون علينا حينما يرومون انتزاع مشعل ثورة الحسين عليه السلام من أيدينا ، إلا لعلمهم بأننا ما لم نتخبط في الظلام لا يسهل لهم سوقنا مثل الأغنام التـائهة الى المجزرة ، ولقد عشنا التجربة في أقسى وأبشع صورها عندما اختطف المستعمرون منا دستور القرآن ومؤتمر الحج بالحضارة والتقدم ، ثم بدا انهم ما كانوا يهدفون مما يقولون إلا تحطيم كيان المسلمين ، فقذفوا الحكومة الاسلامية العزلاء في أتون الحرب ، وزجوا بالملايين في سجن الشيوعية ، ودفعوا مئات الملايين منا في بؤرة الأحزاب وشبكات العمالة والمهاترات .

٧/١١/١٣٨٤ هـ كربلاء المقدسة

رجحان الشعائر الحسينية

لقد جرد الاستعمار بنفسه حملات مباشرة على الشعائر الحسينية ، وكان من الطبيعي أن يفشل ، فالمسلمون ـ مهما انحرفوا ـ لا يأخذون دينهم عن المشركين ، ومن ثم استعار الأوجه المنحرفة التي انحدرت من أصلاب المسلمين ، ثم اتخذ منها نقطة انطلاق امتد منها سرطان الاستعمار الى شتى أعضاء الكيان الإسلامي ، فبرزت ـ مع الأيام ـ في المسلمين وجوه عميلة او مسيرة ، تستتر بها الاستعمار لنشر مبادئه وأفكاره ، وقد اجتهد الاستعمار قبل كل شيء لتوجيه الأحزاب الإسلامية وجهته ، لأنها أقدر من المستعمرين وعملائهم على أن تنخر في كيان الإسلام ، فإذا بالأحزاب الإسلامية تتناصر لمحاربة الشعائر الحسينية ،لأن فكرة التحزب في الإسلام فكرة استعمارية وافدة ، والذين يركزون حركتهم على فكرة استعمارية

سينتهون الى أهداف الاستعمار مهما كانوا مخلصين للاسلام ، لأن الغاية تكون أبداً من نوع الواسطة ، والشر لا ينتج الخير .

وكان من غير الطبيعي ومن غير المتوقع أن تتجاوب مع هذه الآراء وجوه بريئـــة ، ولكن وقع بالفعل ما لم يكن طبيعياً ولامتوقعاً فقد غرر العملاء والأحزاب برجال صالحين، ودفعوهم الى القول بأن الشعائر الحسينية محرمة، وأخذ العملاء والاحزاب هذه الكلمة ، وجعلوا يرددون : الشعائر الحسينية محرمة ، وليتهم وقفوا عند هذا الحد ، إذن لهان الخطب ، ولكن المريب هو أن ينصرف هؤلاء ـ فجأة ـ عن جميع أعمالهم التي عاشوها وعاشوا من أجلها ، ويوقفوا أنفسهم على الصراخ والعويل ليل نهار بأن الشعائر الحسينية محرمة ، وأنها تعرقل تقدم المسلمين ، وهذا العمل الفجائي المريب يبعث فينا أكثر من شك ، ويوفر لنا الحق في أكثر من سؤال ، ومنها :

لو كنتم حقاً تريدون مكافحة المحـــرمات والاحتفاظ بالاسلام فلماذا لا تحاربون بقية المحرمات العلنية التي لم يختلف فيها اثنان من المسلمين ؟ وإن كانت الشعائر الحسينية تعرقل تقدم الاسلام ، فلم لم تصرخوا ضدها من أول يوم ، وقد كان الشيعة يمارسون مجموعة هذه الشعائر الموجودة وأكثر منها قبل أن ينعقد أجدادكم ؟ هل الشعائر الحسينية ابتدعت في هـذا

اليوم بالذات فأردتم القضاء عليها في مهدها ـ كما تقولون ـ ؟ أم انكم ولدتم في هـــذا اليوم فوجدتم الشعائر الحسينية قائمة فاستنكرتموها ؟ أو ان الاستعمار حركـكم اليوم ، فتحركتم تشترون مرضاة المخلوق بسخط الخالق ؟ وإن كنتم مخلصين في دعوتـكم ـ كما تتظاهرون ـ فما الذي دفعكم الى إهمال أعمالـكم السابقة التي عشتموها عمراً ، والتفرغ لمحاربة هذه الشعائر المقدسة ؟ هل وجدتم اعمالـكم السابقة فاسدة فأضربتم عنها ؟ او وجدتم الأهم فتركتموها توفراً على الأهم ؟ أم قال لـكم الاستعمار ، انه يأبى أن يمنحكم العمالة إذا لم تكرسوا جهودكم لحرب الشعائر الحسينية ؟

ومما يدين هؤلاء بالعمالة انهم ـ جميعاً ـ كانوا ممن يقيمون الشعائر الحسينية ، ويتحمسون لها ويدافعون عنها، ثم انقلبوا فجأة يحاربونها بكل قواهم ، ولم تنزل عليهم آية ، ولم يبعث لهم نبي جديد ينسخ شرائع الأولين .

ولكني أنصح هؤلاء بأن ينصرفوا الى اعمالهم السابقة ، ولا يجعلوا الحسين وأباه وجده والإسلام خصومهم يوم القيامة ، وأطمئنهم بأنهم وكل من في الأرض جميعاً ، لو تناصروا لحرب هذه الشعائر العظيمة ، فانما هم الذين سيفشلون وينهارون وينتصر الحسين ودعاته، ولا تزداد شعائره إلا توسعاً وانتشاراً لأنهم ليسوا اقوى من يزيد الذي حشد لحرب الحسين ثلاثين ألفاً أو يزيد ، من المجرمين الذين كان كل فرد منهم يتقرب الى

الله بدمه، فاكتسحهم الحسين واكتسح يزيد والحكومة الأموية كلها، وارتفعت قبته الذهبية تناطح السحاب، وانتصبت له في كل مكان راية تلوح وخطيب يروي البطولات.

هذا من وجهة النظر الاجتماعية، وأما من وجـهة النظر الشرعية فإن الشعائر الحسينية ليست بدعة – كما يقولون – بل بالعكس، ان تحريم الشعائر بدعة ما انزل الله بها من سلطان، لأن البدعة في الدين – التي يعاقب عليها المبتدع أشد العقاب – لا تعني سوى إسناد حكم الى الشارع دون أن يكون عليه دليل شرعي، وتحريم الشعائر الحسينية إسناد حكم الى الشارع، دون أن يكون عليه دليل شرعي، فهو بدعة.

وقد منع القرآن من البدعة في الدين بعنف قاصف، قد لا يوجد نظيره بالنسبة الى أي حرام آخر، فالقرآن الذي يأبى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن تذكر كنيته حين التخاطب، فيقول: «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله، وخاتم النبيين[1]».

ويأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه قائلاً: «ان الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما[2]» هو هذا القرآن نفسه الذي يهدد النبي صلى الله

---

(١) سورة الأحزاب (٤٠).
(٢) سورة الأحزاب (٥٦).

عليه وآله وسلم بأخطر تهديد سمعه الرسول في حياته ، إذ سوّل له البعض أن يغير شيئاً من أحكام الله، او يتقول على الله بعض الأقاويل ، فيقول : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينـــا غيره وإذاً لا تخذوك خليلا * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف المهات . ثم لا تجد لك علينا نصيراً[1] » . « ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين[2] » .

وهذا العنف الرهيب من القرآن في المنع عن البدعة يكشف عن مدى خطورتها . وضخامة جريمتها ، كما أن هذه الآيات حددت مفهوم البدعة ، بأنها الافتراء على الله والتقول عليه .

وما دامت هذه الآيات قد حددت خطورة البـــدعة ، ومفهومها فكل من قال : ان الشيء (كذا) واجب ، دون أن يجد على وجوبه دليلاً معتبراً فقد ابتدع ، وكل من قال : إن الشيء (كذا) حرام ، دون أن يجد على حرمته دليلاً معتبراً فقد ابتدع. وهكذا بالنسبة الى الاستحباب، والكراهة، وإذا حق ذلك فلنعرض عليه أقوال الذين يحرمون الشعائر

---

(١) سورة بني إسرائيل (٧٦ - ٧٨) .

(٢) سورة الحاقة (٤٥ - ٤٨) .

الحسينية ، ليبرز هل أنها من أكمل مصاديق البـــدعة أم لا ؟ فنحن لا نجد في مجموعة الأدلة التي وصلت إلينـــا من المعصومين عليهم السلام ، دليلاً يقول : ان الشعائر الحسينية محرمة ولا دليلاً يقول : ان اللطم على الحسين عليه السلام حرام ، أو أن لبس السواد حرام ، أو أن التطبير حرام .. وما داموا يحرمون ما لا دليل على تحرمته فهم يفترون على الله ويتقولون عليه ، وبالتالي فهم يبدعون في الدين بدعة .

والواقع أن الأدلة الشرعية ، ليست ســاكتة عن حكم الشعائر الحسينية ، حتى يتاح للمبدعين أن يفـــتروا على الله الكذب ، وانما هي واضحة تفيد أن الشعائر الحسينية مباحة بطبيعتها الأولية ومستحبة بطبيعتها الثانوية .

أما كون الشعائر الحسينية مباحة بطبيعتها الأولية ، فتدل عليها اصالة الاباحة العقلية والشرعية ، لأن أنواع الحكم الشرعي خمسة : الوجوب ، والحرمة ، والاستحبـــاب ، والكراهة ، والاباحة وهذه الأحكام الخمسة ، عامة تشمل كافة الأعمـــال والأقوال الصادرة عن العباد ، وكافة الأشيــاء الموجودة في متناول العباد ، فكل عمل او قول او شيء ، لابد ان يكون محكوماً بأحد هذه الاحكام الخمسة ، إذ لم يترك الشارع عمـلاً او قولاً او شيئاً لم يحكم عليه بحكمه ، ولم يصدره إلى العبـاد ولو في ضمن الأدلة العامة — المقررة تفاصيلها في الفقه —

فكل مالم يوجد له حكم من الأحكام الخمسـة ، فهو مبـاح

للادلة الاربعة ، فأما القرآن فقد دلت عليه آيات منه ، منها قوله تعالى « لايكلف الله نفساً الا ما أتيها » ، ومنها قوله عز وجل : « وماكنا معذبين حتى نبعث رسولاً » ومنها قوله عز من قائل « وما كان الله ليضل قوماً بعد اذ هداهم ، حتى يبين لهم ما يتقون » ومنها قوله عز اسمه : « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حيّ عن بينة » . وهذه الآيات تتفق على أن الله تعالى لايؤاخذ العباد على شيء لم يبينه لهم .

وأما من السنة فأخبار كثيرة . فعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « ... رفع عن امتي تسعة ... وما لايعلمون ... » وفي غوالي اللئالي عن الامام الصادق عليه السلام « كل شيء مطلق حتى يرد فيه نهي » وفي أمالي الشيخ بإسناده عن ابي عبد الله عليه السلام : « الأشياء مطلقة ، مالم يرد عليك أمر أو نهي ، وكل شيء يكون فيه حلال وحرام فهو لك حلال ابداً ، مالم تعرف الحرام منه بعينه ، فتدعه » . وفي التهذيب عن ابن محبوب عن ابي عبد الله عليه السلام : « كل شيء يكون فيه حرام وحلال ، فهو لك حلال أبداً ، حتى تعرف الحرام فيه بعينة ، فتدعه » . وروى الشهيد في الذكرى عن الامام الصادق عليه السلام : « كل شيء لك حلال ، حتى تعرف انه حرام بعينه . فتدعه من قبل نفسك . وذلك مثل الثوب ، يكون عليك ، قد اشتريته وهو سرقة ، والمملوك عندك ، ولعله حر قد باع نفسه . او خدع فبيع ، او قهر

فبيع ، او امرأة تحتك وهي اختك او رضيعتك . والاشياء كلها على هذا، حتى يستبين لك غير ذلك، اوتقوم به البينة » .
وفي الحديث المشهور : « ماحجب الله علمه عن العباد ، فهو موضوع عنهم » . وفي بعض الاحاديث : « الناس في سعة مالايعلمون ».و« ايما امرء ركب امراً بجهالة ، فلاشيء عليه » و « ان الله يحتج على العباد ، بما آتاهم ، وعرفهم » .

وهذه الاحاديث تتفق على اباحة مالم يرد فيه نهي عن الشارع وان اصالة الاباحة ، تجري في كل شيء ، لم يصل الى العباد حكم الزامي في شأنه .

واما من الاجماع ، فيكفي فيه اتفاق عامة الاصوليين ، واكثر الاخباريين على ان الحكم الشرعي هو الاباحة ، في كل ما لم يرد فيه دليل الزامي من الشرع او العقل .

واما من العقل ، فهو حكم العقل بقبح العقاب بلابيان .

إذن ، فاصالة الإباحة محكمة في كل شيء لم يرد فيه حكم الزامي ، والشعائر الحسينية من الاشياء التي لم يرد فيها حكم الزامي فتكون مشمولة باصالة الاباحة . فمن حرّمها فقد ابتدع في الدين لانه اسقط الاصل عن الاعتبار بلا مبرر .

وهنا يسرع أصحاب هذه الدعوة الباطلة ، الى القول بأن التطبير وضرب الاكتاف العارية بالسلاسل ، مضرة بالصحة ، وكل شيء يضر بالصحة فهو حرام .

والجواب عنه ، أولاً :

ليس في الشعائر الحسينية ما يضر بالصحة ، فالتطبير لا يزيد على جرح الرأس ونزف كمية محدودة من الدم لا تضر الجسم ، بل قد تنفعه كالحجامة والفصد . واما ضرب الاكتاف بالسلاسل فانه لا يضر الاكتاف بل يسبب قوة جلدها .

واما اذا كان هناك انسان يضربه أية واحدة من هذه الشعائر بحيث يؤدي الى هلاك نفسه او طرف من اطرافه ، فانه يحرم عليه بالنسبة الى نفسه فقط ، ولكن هذا داخل في العناوين الثانوية التي لا تؤثر على احكام العناوين الاولية واين هذا من موضوع البحث ؟ فكل شيء اذا أصبح ضررياً يحرم وان كان بعنوانه الاولي واجباً كالصوم والحج . فهل هذا يبرر ان نقول : ان الصوم والحج محرمان لانهما قد يؤديان الى ضرر ؟ .

وثانياً :

ان الضرر الذي يحرم تحمله باتفاق العقل والشرع هو الضرر الذي يكون بلا هدف عقلائي صحيح ، واما اذا تحمل الانسان مشقة مضرة لهدف عقلائي فلا دليل على حرمته كتحمل المرتاضين والزهاد كثيراً من المشقات المضنية التي تنهك قواهم وكتحمل اصحاب الحرف الشاقة صعوبات تبري

اجسامهم وتضعف جميع اجهزتهم العضلية دون ان يكون محرماً عليهم .

ثالثاً :

ليس في الشرع دليل يقول : ان كل ما يضر بالصحة حرام ، حتى يصح التمسك بعمومه . كل ما يوجـد في هذا الباب هو قوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » وأحاديث جمة تفيد : ان اهلاك النفس ، أو اهلاك أحد الاطراف حرام ، ولا نناقش في حرمة اهلاك النفس أو الطرف ، فمن انتحر ، أو شل أحد اعضائه ، فقـد اقترف جريمة كبيرة ، ولكن ليس كل ما يضر بالصحة ، داخلاً في عنوان اهلاك النفس أو الطرف .

وأما قول النبي ﷺ :« لا ضرر ولا ضرار في الاسلام » فيجاب عنه أولاً : بأنه مختص بغير الأحكام الصادرة في مورد الضرر ، كالجهاد والحج ، والختان ، والخمس ، والزكاة ، وتمكين النفس من الحـدود : والقصاص ، والتعزيرات ، والصبر على المصائب ، ومجاهدة النفس بترك الأخلاق الرديئة ، وتحمل المرأة أوجاع الحمل والولادة . وثانياً : بأن هذا الحديث ، يعني عدم وجود الأحكام الضررية في أصل الشرع لا حرمة تحمل الضرر مطلقاً . ولهذا لا يحرم نذر صوم الدهر سوى العيدين ، وادامة الوضوء ، والتزام جميع النوافل ، والسعي ماشياً الى الحج والعتبات المقدسة ، واحياء الليالي بالعبادة .

كل هذا ، بالاضافة الى وجود أدلة تدل على أن المعصومين كانوا يتحملون الضرر بأنفسهم، ويقررون تحمل الضرر لغيرهم.

فإن آدم عليه السلام بكى على فراق الجنة ، حتى فتح الدمع في خديه أخدودين .

ويعقوب بن اسحاق انتحب على فراق نجله يوسف ، حتى قال له الناس : « بالله تفتأ تذكر يوسف ، حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين [1] ».وحتى قال الله تعالى: « ...وتولى عنهم ، وقال يا أسفي على يوسف ، وأبيضّت عيناه من الحزن، فهو كظيم [2] » .

وورد في أحاديث زهد يحيى بن زكريا عليه السلام : « ان الدمع خـــدّ خدّيه ، وأكل منهما ، حتى وضعت أمه عليهما لبداً » .

وورد في شعيب عليه السلام: « أنه بكى حبّاً لله وخشية منه، حتى عمى فرد الله بصره ، ثم بكى حتى عمى، فرد الله بصره ، ثم بكى حتى عمى فرد الله عليه بصره » وعندما استجوب من قبل الله على كثرة بكائه ، وأجاب بأنه يبكي حبّاً لله ، قال الله عز وجل : « لهذا اخدمتك كليمي موسى بن عمران » .

---

(١) سورة يوسف (٨٥) .
(٢) سورة يوسف (٨٤) .

والنبي الأكرم ﷺ وقف في محراب العبادة حتى تورمت قدماه فقد روى الطبرسي في الاحتجاج بسنده عن علي عليه السلام: « لقدقام رسول الله ﷺ - عشر سنين - على أطراف أصابعه، حتى تورمت قدماه وأصفرّ وجهه: يقوم الليل اجمع حتى عوتب في ذلك». وروى الشيخ الطوسي عن ابي جعفر عليه السلام قول السجّاد: « إن جدى رسول الله ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فلم يدع الاجتهاد في العبادة حتى انتفخ الساق وتورم القدم، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال: أفلا اكون عبداً شكوراً ؟ » ولم يزل يقف على أطراف أصابعه حتى نزلت سورة « طه » مفتتحة بقوله: « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » وكان إذا صلى ارتعد وأصفر وسمع من صدره ازيز كأزيز المرجل، وهذا يكون عندما تنتفخ الرئة فتضايق القصبة الهوائية، ولا يكون ذلك إلا عند أشد الخوف والفزع.

وإن فاطمة الزهراء وقفت في محرابها حتى تورمت قدماها.

ففي البحار عن الحسن عليه السلام: « ما كان في الدنيا أعبد من فاطمة كانت تقوم حتى ورم قدماها ». وتورم القدم ونزول الماء إليها من الوقوف مرض خطير يعجز الطب عن معالجتها معالجة شافية. وجاء في اخبار كثيرة: « ان فاطمة استقت بالقربة حتى اثر في صدرها وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها ». وفي الخرائج عن سلمان الفارسي، وقد دخل

على فاطمة فقال : « كانت فاطمة جالسة قدامها الرحي تطحن بها الشعير ، وعلى عمود الرحى دم سائل والحسين في ناحية من من الدار يتضور من الجوع » .

وأن أمير المؤمنين عليه السلام كان في كل ليلة يناجي الله ويذكر الموت والقبر والنار حتى تعتريه - من خوف الله - غشوة يخر منها كالخشبة اليابسة .

وإن الامام الحسن عليه السلام حج ماشياً خمسة وعشرين حجة والنجائب تقاد خلفه . وفي الكافي عن الامام الصادق عليه السلام : « ان الحسن عليه السلام خرج سنة الى مكة ماشياً فتورمت قدماه فقال له بعض مواليه : لو ركبت يسكن عنك هذا الورم فقال : كلا ، ولكن إذا أتينا هذا المنزل ، فإنه يستقبلك أسود ومعه دهن فاشتر منه ولا تماكسه ... » .

وان الامام الحسين عليه السلام حمل على كتفه الجراب الى دور اليتامى والمساكين حتى وجد على كتفه - بعد قتله - جرح لم يعرفه الأعداء فلما سألوا عنه الامام زين العابدين عليه السلام قال : انه اثر الجراب .

وروى في البحار عن ابي مخنف عن الجلودي : « ان الحسين عليه السلام لما اقحم فرسه على الفرات وولجه وغرف منه غرفة ليشرب سمع صائح القوم يقول : « حسين ادرك خيمة النساء فقد هتكت » فرمى الماء من يده وخرج فاذا الخيمة سالمة .

بينما كان العطش قد اضرّ به ، حتى حال بينه وبين السماء كدخان وكان ترك شرب الماء مضراً به حتماً .

وأن أهل البيت صاموا ثلاثة أيام دون أن يفطروا بغير الماء حق كان الحسنان يرتعشان من الجوع كأنهما فرخان منتوفان . فقدر الله ايثارهم بسورة « هل أتى » .

والامام السجّاد عليه السلام بكى وانتحب على أبيه الحسين حتى قال مولىً له : جعلت فداك يا بن رسول الله اني أخاف أن تكون من الهالكين . وقال له بعض أصحابه : إنك لتبكي دهرك ، فلو قتلت نفسك مازدت على هذا .

وقد عاش السجاد دائم السقم دائم الحزن نحيف البدن ، وأصفرّ لونه بالاستدامة على العبادة ، وعمشت عيناه من السهر ، ودبرت جبهته وخرم أنفه من السجود . وفي رواية الصدوق في الخصال : « انه كانت تسقط منه كل سنة سبع ثفنات ، من مواضع سجوده » حتى لقب بذي الثفنات ، وفي القاموس : ذو الثفنات هو علي بن الحسين .

وقد ضعف من كثرة العبادة حتى كانت الريح تحركه . ولما سأله جابر بن عبد الله الانصاري البقاء على نفسه ، أجابه عليه السلام : « لا أزال على منهاج أبوي ، متسياً بسنتهما ، حتى ألقاهما » . وعندما قال له نجله الامام الباقر عليه السلام : « يا أبة كم هذا الدأب؟ » أجابه قائلاً: « التحبّب الى ربي لعله يزلفني».

والامام الكاظم قد هزل من العبادة ، حتى إذا سجد بدأ كأنه ثوب مطروح على الأرض . وصار كالشن البالي .

وفي رياض المصائب : « ان العباس لما ملك الماء يوم العاشر واغترف من الماء غرفة ليشرب ، تذكر عطش الحسين ومن معه فرمى الماء على الماء » .

وأن الرباب زوجة الحسين عليه السلام آلت على نفسها ـ بعد رجوعها الى المدينة ـ : ان لا تستظل تحت سقف ، وعاشت بعد الحسين سنة واحدة ، ثم ماتت كمداً . وقيل انها أقامت على قبره سنة وعادت الى المدينة فماتت أسفاً عليه .

وهذه الأعمال والكثير من أمثالها التي ملأت السيرة الطاهرة ، تدل على أن مجرد الاضرار بالصحة غير محرم في الاسلام ، بل محمود إن كان في سبيل الله ، كما يظهر من وصف أمير المؤمنين عليه السلام للمتقين في خطبته المشهورة .

وروى ابن قولويه في كامل الزيارات عن الامام الصادق عليه السلام إنه قال : « ايما مؤمن مسّه أذىً فينا صرف الله عن وجهه الأذى .. » .

ومن كل هذا ظهر : ان كل ما يضر بالصحة ليس حراماً ، كما يبدو لبعض الناس ، بل قد يكون مستحباً شرعاً . ونحن نفضل الشعائر الحسينية واحدة ، ونعرضها على الأدلة الشرعية ، لنتأكد من رأي الاسلام فيها .

البكاء

أما طبيعة البكاء فإنها مباحة، بل ربما تستكشف محبوبيّتها من بعض الآيات – لأنه ينم عن رقة القلب – بخلاف الضحك – الذي يكشف عن القسوة والغفلة – كقوله تعالى: « ... فليضحكوا قليلاً، وليبكوا كثيراً، جزاءاً بما كانوا يكسبون[1] . » وتبدو هذه الحقيقة بأجلى مظاهرها، في وصف القرآن، للمؤمنين الأبرار بكثرة البكاء، حيث قال: « قل: آمنوا به، او لا تؤمنوا به، إن الذين أوتوا العلم من قبله، إذا يتلى عليهم، يخرون للاذقان سجداً ويقولون: سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للاذقان يبكون، ويزيدهم خشوعاً[2] . » وحيث قال: « أولئك الذين أنعم الله عليهم من ذريّة ابراهيم واسرائيل، وممن هدينا

---

(١) سورة التوبة (٤٣) .

(٢) سورة بني اسرائيل (١٠٨ – ١٠٩) .

واجتبينـا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن ، خـروا سجـداً وبكياً[1] . »

ومن الطبيعي أن يحب الاسلام البكاء لأنه يحل العقد النفسية التي يعجز العلم عن معالجتها . لأن الازمات والخسائر التي تصدم الانسان ، تترسب في قلبه على شكل عقـد ، لا يحلهـا سوى الانتقام ، ممن سبب له تلك النكبة ، واذا كان الاسلام ديناً متسامحاً ، لا انتقامياً ، وإذا كان الانسان جائراً في كثير من ألوان الانتقام التي يرغب فيها بطبيعته الحيوانية . وتتظافر الأديان والقوانين على صدّه من ممارستها ، فلا تجد تلك العقد ، مجالاً للتعبير والتنفس اللذين يروحان عنها ، بل تظل في أعماق النفس ، تأكل بعضهـا وتأكل الانســان ، حتى تنقلب تحت الكبت الطويل ، إلى حقد يجعل صاحبه شرّيراً ، يحب الوقيعة في كل أحد ، بعد أن كان يريد الانتقام من خصمه فحسب ، بحيث لا يشعر بالراحة ، إلا إذا رأى الدماء البريئة تراق ، ودموع الثكلى تسفح ولا يطمئن بغير الانات الجريحة ، والآهات الباردة ووجود الحقد في النفوس بلاء إذا أصاب مجتمعاً يلتهب فيه الرطب واليابس ، ولا ينجو من ويلاته مجرم ولا بريء ، فلابد من إزالته بمختلف الطرق ، قبل أن يستفحل ويستعصى على العلاج ، والاسلام حيث يوصي بالبكاء

---

(١) سورة مريم (٥٩) .

يحاول حل العقد النفسية قبل أن تترسب في النفوس ، وتعاني الكبت فتتحول إلى حقد .

على أن النفوس ، التي تعيش في أجواء مفعمة بالأحداث والمناقضات يترسب عليها غبار المعـارك ، في صورة عقد ، وان لم تشتبك مصالحها الخاصة مع خصوم ، لأن الجوّ الاجتماعي يفرض رواسبه على كل من يعيش في ظله — من حيث يشعر أو لا يشعر — حتى على أشد الناس حذراً من عواقبه ، والعقد النفسية ، تفرض على أصحابها من حيث يخيّل إليهم أنهم لايستجيبون لعقدهم النفسية ، وانما يلبون نداء العقل والضمير — فتنعكس العقد شذوذاً في تصرفاتهم . والبكاء — وحده — هو الدواء الوحيد ، الذي يذيب العقد ، قبل أن تستحوذ على العقل الباطن ، وتتسلل اتجاهاتها إلى التصرفات الخارجة .

ولهذا السبب تكون النساء أقل عقداً من الرجال ، لأنهن لا يعانين أزمة نفسية ، إلا ويفرجن عن أنفسهن بالبكاء ، فينفضن عن أنفسهن العقد قبل أن تتركز ، وأما الرجال فانهم حيث يستنكفون عن التوسل بالدموع لمعالجة قضاياهم ، ويستعصى الدمع في آماقهم دون التمسح بالأيدي والاقدام القذرة ، يخلف كل أزمة — لايجدون الخلاص عنها — في أنفسهم عقدة تأخذ مجراها إلى تصرفاتهم ، رويداً رويداً ، فيصبحون

أصحاب شذوذ ، من حيث يظنون أنهم عباقرة ينكرهم المجتمع .

فالدمع ، هو المعين الذى يغسل النفس ، عن العقد التي تترسب عليها من غبار المعارك والاحداث . ومن الخطأ انفة الرجل عن ذرف الدموع إذا هاجت به التنفس ، فلم يجد عنها مصرفاً ، فالصفة الكريمة للرجل هي أن يكون جلداً رابط الجأش ، لا يهيج بالاثارات الطفيفة لا أن يكبت نفسه إذا هاجت ، ولهذا كان الانبياء والائمة عليهم السلام ـ الذين هم المثل العليا للانسان الفاضل ـ لايكفكفون دموعهم إذا انبجست أبداً ، فالنبي آدم عليه السلام ، بكى لطرده من الجنة ، حتى صنع الدمع مسيلين في خديه. والنبي يعقوب عليه السلام بكى على فراق ابنه يوسف ، حتى أبيضّت عيناه فعمى ، والنبي يوسف عليه السلام بكى على أبيه يعقوب في السجن ، حتى ضاق به السجناء معه ، فقالوا له : اما أن تبكي الليل وتسكت النهار ، واما أن تبكي النهار وتسكت الليل . وأن النبي الاعظم : محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم بكى على ولده ابراهيم ـ وقد توفى عن ثمانية عشر شهراً ـ حتى كانت تنتفض منكباه فسأله الناس عن سبب بكائه وهو يأمرهم بالصبر على النوازل ، فأجابهم صلى الله عليه وآله وسلم : « القلب يحترق ، والدمع يجري ولانقول مايغضب الرّب » . وأن فاطمة الزهراء عليها السلام بكت على أبيها رسول الله ـ حين قبضه الله اليه ـ

حتى ماتت بغصتها ، فلم تر بعد أبيها إلا باكية العين معصبة الرأس ، منهدة الركن ، يغشى عليها ساعة بعد ساعة .
والامام السجاد عليه السلام بكى على أبيه الحسين عليه السلام بقية حياته ، فقيل : خمس وعشرين سنة وقيل أربعين سنة ، حتى التحق بالرفيق الأعلى .

فالبكاء محبوب عند الله وفي جميع الاديان سواء أكان من خشية الله ، او على نكبة ، واما البكاء على مآسي أهل عليه السلام ومأساة الطف بالذات فانه مستحب ، وعليه ثواب عظيم .

وهناك أخبار كثيرة تدل على أن الله لم يبعث على وجه الأرض نبياً ووصياً ، إلا ذكره بمصاب الحسين عليه السلام فبكى عليه قبل استشهاده وان النبي والزهراء وجميع الائمة عليهم السلام بكوا على الحسين عليه السلام بكاءاً شديداً حتى كان من ألقاب الحسين عليه السلام « صريع الدمعة الساكبة » و« عبرة كل مؤمن ومؤمنة » وحتى بكته أسرته يوم ميلاده ، وحتى قال الامام الرضا عليه السلام : « ان يوم الحسين اقرح جفوننا واسبل دموعنا وأذل عزيزنا بأرض كرب وبلا » وقال الامام المنتظر عليه السلام — في زيارة الناحية مخاطباً جده الشهيد : « ولئن اخرتني الدهور ، وعاقني عن نصرك المقدور فلاندبنك صباحاً ومساءاً ولا بكين عليك بدل الدموع دماً »

وفي المستدرك باسناده عن ابي جعفر عليه السلام ، قال : « نظر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الحسين عليه السلام وهو مقبل فأجلسه في حجره ، وقال : ان لقتل الحسين عليه السلام حرارة في قلوب المؤمنين لاتبرد أبداً . ثم قال أبو جعفر . بأبي قتيل كل عبرة ، قيل : وما قتيل كل عبرة ؟ قال : لايذكره مؤمن إلا بكى » .

وأما الاخبار الصادرة في فضل البكاء على الامام الشهيد ، فهي كثيرة نذكر منها ما يلي :

في كامل الزيارة ، عن ابي حمزة ، عن الامام الصادق عليه السلام : « ان البكاء والجزع مكروه للعبد ، في كل ما جزع، ما خلا البكاء والجزع على الحسين بن علي فانه مأجور » .

وروى الصدوق في الأمالي ، باسناده عن الإمام الرضا عليه السلام : « من تذكر مصابنا ، وبكى لما ارتكب منا ، كان معنا في درجتنا يوم القيامة ومن ذكر مصابنا،فبكى وابكى، لم تبك عينه يوم تبكي العيون ، ومن جلس مجلساً يحيى فيه امرنا ، لم يمت قلبه يوم تموت القلوب » .

وروى على بن ابراهيم ، عن الإمام الصادق عليه السلام : « من ذكرنا او ذكرنا عنده ، فخرج من عينيه دمع مثل جناح بعوضة ، غفر الله له ذنوبه ، ولو كان مثل زبد البحر » .

وروى الشيخ في الامالي ، بإسناده عن الامام الصادق عليه السلام : « من دمعت عينه فينا دمعة ، لدم سفك لنا، أو حق لنا نقصناه ، أو عرض انتهك لنا ، أو لأحـد من شيعتنا ، بوأه الله تعالى بها في الجنة حقباً » .

وروى ابو هارون المكفوف ، عن الصادق عليه السلام : « من ذكر الحسين عنده ، فخرج من عينه من الدموع ، مقـــدار جناح الذباب كان ثوابه على الله ، ولم يرض له بدون الجنة » .

فهذه الاخبار والمئات من أمثالها تكشف عن الجانب الأخروي لفضل البكاء على سيد الشهداء بصورة خاصة، وأهل البيت جميعاً بصورة عامة .

وكان الأئمة عليهم السلام يشجعون البكاء على الحسين ، بكل ما أمكنهم من أساليب ، فربما كانوا يذكرون ثواب البكاء على الامام الشهيد ، وحيناً كانوا يدعون لهم .. ومن الدعوات التي دعا بها أهل البيت للباكين على الامام الحسين مارواه في الكافي ، وكامل الزيارة ، مسنداً عن معاوية بن وهب أنه سمع الامام الصادق عليه السلام يقول في سجوده : « اللهم ارحم تلك الوجوه التي غيرتها الشمس وأرحم تلك الخدود التي تقلبت على حفرة ابي عبد الله الحسين ، وأرحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا ، وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا، وارحم تلك الصرخة التي كانت لنا اللهم اني استودعك تلك الأنفس والابدان حتى توفيهم على الحوض يوم العطش الاكبر» .

ولما استكثر معاوية بن وهب، هذا الدعاء لزوار قبر الحسين والباكين عليـــه ، قال له الامام الصادق : « ان من يدعو لزوّار الحسين في السماء ، اكثر ممن يدعو لهم في الأرض » .

وللبكاء على أهل البيت جميعاً، وعلى والحسين بصورة خاصة جوانب دنيوية قد يكون أبرزها الجانب التربوي لأن البكاء على شيء ـ أي شيء ـ لا يكون إلا بعـد انفعال الباكي ، بالحادث الأليم الذي اكتنف ذلك الشيء ، حتى يبكي عليه ، ولكل حادث مجرم وضحيّة ومن الطبيعي ان يؤدي الانفعال، الى تحيز الباكي للضحية ومعاداة المجرم ، فتهيج فيه الثورة على الظـــالم والاشفاق على المظلوم وحيث ان الامام الحسين ويزيد لم يكونا بطلين وقفا على نقطتي نقض فاشتبكت مصالحهما، وتصارعا على حكم مثل كرة الطراد ، وانما كان كل واحد منهما يمثل جبهة بلغ فيها الذروة ، فتوفر في معركتهما من المعاني الحيوية ، ما لم تتوفر في أية معركة أخرى ـ كان البكاء على الامام الحسين عليه السلام يعني توجيه الباكي نحو جميع الفضائل وإثارته ضد جميع الرذائل، ومثل هذه الفائدة السخية لايمكن أن تحصل من البكاء على أي شهيـد آخر ، ولا من أي شيء آخر سوى البكاء على الامام الشهيد ، كان حرياً بتأكيدات الائمة الاطهار ، والمكافأة بذلك الثوب المعظم فثواب البكاء على الحسين الجنة ، لأنه يدفع الى انتزاع صفات أهل النار وتقمص صفات أهل الجنة ، ولو بعد حين . حين يتاح للبكاء

ان يتفاعل مع الباطن ويخلف فيه أثره التربوي .

وهكذا لا تبدو الأحاديث السابقة مبالغة في تكثير ثواب البكاء على الامام الشهيـــد ، ولا تكشف عن مجازفة في جعل الثواب ازاء البكاءعليه وانما تعبر عن ثواب البكاء بمقتضى أثر البكاء .

التبــاكي

التباكي تمثيل البـكاء ، ويكون بالصوت ، او بتنغيص عضلات الوجه ، او بالحركة والضرب على الجبهة ـ أحياناً ـ بدون ذرف دمع والتبـاكي يكون دائمـاً بالنسبة إلى من آمن بلزوم البكاء على فاجعة ولكن استعصى عليه الدمع ، لاسباب صحيـة ترجع الى نفـاذ الدمع ـ الذي هو بخـار الدم ـ في عروق المقلة او لعدم انطباع المشهد في خاطره حتى يجرح شعوره فيتأثر ويبكي .

وحيث أن من يحاول فرض البكاء على نفسه ـ في كارثة ولو من دون ان تستجيب طبيعته ـ يكون مؤمناً بوجوب التحيّز الى جانب المظلوم والتظـاهر ضـد الظـالم ، وان لم يتجاوب عملياً ، فيعتبر في طريق التجـاوب غـير أن عـدم استجابة طبيعته يكشف عن أنه يعاني بعداً أصيلاً في كيانه وتباكيه يكشف عن أنه يعمل لإزالته ، وكل من يعمل لإصلاح

نفسه لا بد ان يفوز لأن من سار على الدرب وصل ومن عرف نقطة ضعفه ، وجاهد لتحويلها إلى نقطة القوة نجح . لهـــذا يستحق المتباكي ثواب الباكي لإشتراكهما في آداء واجبهما تجاه مأساة يحاولان استخلاص عبرها .

وقد أشار المعصومون عليهم السلام إلى تســـاوي ثواب البكاء والتباكي في عدة مناسبات ، ورغبوا في التبـاكي بنفس الإلحاح الذي رغبوا به في البكاء :

ففي كنز العمال : أن النبي ﷺ قرأ على جمـــاعة من الانصار قوله تعـالى : « فسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً » فبكوا إلا شـــاباً منهم قال : لم تقطر من عيني قطرة واني تباكيت ، فقال ﷺ : « من تباكى فله الجنة » .

وفي كنز العمال – أيضاً –: روى جرير : ان النبي ﷺ قال « اني قاريء عليكم « الهاكم التكاثر » من بكى فله الجنة ، ومن تباكى فله الجنة » .

وفي مجمـــوعة الشيخ ورام : ان أبا ذر حدث عن النبي ﷺ : أنه قال : « إذا استطاع أحدكم ان يبكي فليبك ومن لم يستطع فليستشعر قلبه الحزن وليتباك ، فان القلب القـاسي بعيد عن الله » .

وروى الصدوق في الأمالي ، عن ابي عمـــارة عن الامام

الصـــادق عليه‌السلام « يا ابا عمارة ، من انشد في الحسين شعراً فأبكى خمسين فله الجنة ، ومن انشد في الحسين شعراً فأبكى أربعين فله الجنة ، ومن انشد في الحســين شعراً فأبكى ثلاثين فله الجنة ، ومن انشد في الحســـين شعراً فأبكى عشرين فله الجنة ، ومن انشد في الحسين شعراً ، فأبكى عشرة فله الجنة، ومن انشد في الحسين شعراً فأبكى واحداً . فله الجنة ، ومن انشد في الحســـين شعراً ، فبكى فله الجنة ، ومن انشد في الحسين شعراً ، فتباكى فله الجنة » .

فالبكاء والتباكي عملية واحدة ، ولها أثر واحد ، وثواب واحد غير أنها لو صدرت ممن جمع المؤهلات الصحية والنفسية تكون بكاءاً ، وان صدرت ممن فقد احدى المؤهلات الصحية او النفسية تكون تباكياً .

المـأتم

والمأتم : هو المجلس الذي تعد فيه مصائب انسان ، وهو بطبيعته ساذج يتلون بلون المصائب التي تعد فيه ولون الانسان الذي تعد مصائبه . ومآتم الامام الحسين ، هي المجالس ، التي تعقد لسرد مصائبه فيها واقامته للحسين موجبة لإقامة ثورة الحسين حية خالدة ، وتفسير خططها واهدافها والظروف والملابسات التي دفعتها الى الوجود ، حتى تبرز الى الأذهان ، كما برزت الى الوجود .

ولولا المآتم التي أقيمت على الامام الحسين عليه السلام — منذ استشهاده حتى اليوم — لما استطاعت تلك الثورة المحدودة ، أن تفتح المجال لأهدافها الكبيرة ، ولما استطاعت اجتياح حكومة أمية ، وحكومات تلتها ، وورثت انحرافها .

فثورة الحسين عليه السلام — كأية حركة ناجحة — لو استدرجها التاريخ ، في صيغة حادثة وقتية ، لم تقدر على احراز مكاسبها

الكثار ، وانما قدرت – في الماضي وتقـــدر في المستقبل – بواسطة المآتم الكثيرة التي تقـام لهـــا ، والحاح الشروح والتعليقات ، على بسط فلسفتها واهدافها وابعادها . فانتصر لها دعاة وتألـب حولها رواد فعاشوها ، وأحيوها مرة ثانية وثالثة ، وتوارثوها جيلاً عن جيل ، واستدروا من ركائزها وقيمها ما يلائم ظروفهم ويعالج قضاياهم الحية ، لتكون ثورة كل جيل وقضية كل ساعة ، حتى تقدر على التلاقح والانتاج .

لأن الحسين عليه السلام لم يكن إمام جيل بل إمام الأجيال إلى يوم القيامة ، فلابد أن تكون كافة أعماله وأقواله – وفي مقدمتها ثورته – عالمية خالدة ، تعالج المشاكل اليومية والدائمية إلى يوم القيامة ، واغلاق ذلك الجيل على ثورة الحسين عليه السلام اكبر جريمة تجـــاه شخص الامام عليه السلام ، لأنه يعني تحديد شخصيته ، وبالتالي تحديد رسالته التي من أجلها خلق ومن أجلها قتل .

وقد يكون هذا الهدف من أهم العوامل التي كانت تدفع الائمة عليهم السلام الى اقامة المآتم بأنفسهم ، والحاحهم على الشيعة باقامة المآتم على سائر أفراد أسرهم ، وعلى الحسين بالذات .

فقد روى الشيخ يوسف بن حاتم تلميذ المحقق الحلي – في در النظيم – عن الإمام الرضا عليه السلام : أنه قال : « لما أردت

الخروج من المدينة الى خراسان ، جمعت عيـــالي ، وأمرتهم بالندبة علي ، حتى أسمع بكاءهم ، ثم قسمت بينهم اثني عشر ألف دينار ، وقلت لهم : اني لا أعود الى أهل بيتي أبداً » .

وفي زيارته المأثورة : « ... السلام على من أمر أهله بالنياحة عليه قبل وصول المنية إليه ... » .

وفي التهذيب للطوسي ، عن يونس بن يعقوب ، عن ابي عبد الله عليه السلام قال : قال لي ابو جعفر : « أوقف لي من مالي كذا وكذا لنوادب يندبنني عشر سنين ، بمنى أيام منى»[1].

وفي المجـــالس السّنية : حكى دعبل الخزاعي ، قال :

---

(١) ومن هذا الحديث يستكشف : أن هدف الامام من المـأتم – الذي أوصى باقامته في منى عشر سنين – لم يكن مجرد ذرف الدموع بمقدار ما كان امتداد لرسالته ، والا لم يكن مـبرر لتخصيص المكان بمنى ، ولـكان الأسهل أن يوصي بنوادب يندبنه في مكة المكرمة ، او في المدينة المنورة ، ولكنه لم يرد نوادب يندبنه في مكة او في المدينة ، وانما أراد نوادب يندبنه في منى ، لأنه لم يرد مجرد ذرف الدموع ، وانما أراد امتداد رسـالته ، فأوصى بنوادب يندبنه في المواسم ، حيث يجتمع الناس من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ، وفي أيام العيد، حيث يكون الناس مبتهجين باتمام الحج ليكون البكاء متنافراً مـع طبيعة الموقف ، وطبيعـة تلك الايام ، وطبيعة النـــاس في ذلك الموقف فيكون ابعث على التساؤل حين سمـــاع النوادب ، والقص عند رجوعهم من منى ، وتفرقهم في بلادهم ، وبذلك يكون الامـام ، قد اعـاد الى الاذهـان ذكرياته وظلاماته وحمل الحجاج على نشرها في مختلف البلاد ، عن طريق لايمكن السلطات مكافحته وصده .

دخلت على سيدي ومولاى : علي بن موسى الرضا ، في ايام عشر المحرم ، فرأيته جالساً جلسة الحزين الكئيب ، واصحابه من حوله ، فلما رآني مقبلاً ، قال لي : مرحباً بك يا دعبل ، مرحباً بناصرنا بيده ولسانه ثم أنه وسع لي في مجلسه ، واجلسني الى جنبه ، ثم قال لي : يا دعبل أحبّ أن تنشدني شعراً ، فان هذه الأيام ايام حزن كانت علينا أهل البيت ، وايام سرور كانت على اعدائنا ، خصوصاً بني أمية يا دعبل من بكى او ابكى على مصابنا — ولو واحداً — كان أجره على الله يا دعبل من ذرفت عيناه على مصابنا ،وبكى لما أصابنا من أعدائنا ، حشره الله معنا في زمرتنا . يا دعبل ، من بكى على مصاب جدي الحسين غفر الله له ذنوبه البتة » . ثم أنه نهض ، وضرب ستراً بيننا وبين حرمه ، واجلس أهل بيته من وراء الستر ليبكوا على مصاب جدّهم الحسين ، ثم التفت إلي ، وقال : « يا دعبل ارث الحسين ، فأنت ناصرنا ومادحنا ما دمت حياً ، فلا تقصر في نصرتنا ما استطعت » . قال دعبل فاستعبرت وسالت عبرتي وانشأت اقول :

« أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً وقد مات عطشاناً بشط فرات »

« إذن للطمت الخد فاطم عنده واجريت دمع العين في الوجنات »

وفي المناقب عن ابي مخنف : « ... لما دخلت النسوة دار يزيد ، لم يبق من آل معاوية ولا آل سفيان احد إلا

استقبلهن بالبكاء والصراخ والنياحة على الحسين وألقين ما عليهن من الثياب والحلي ، واقمن المآتم عليه ثلاثة أيام ... » .

وفي جـلاء العيون عن السيد ابن طاووس : « ... ولما رجعت نساء الحسين وعياله من الشام ، وبلغوا إلى العراق قالوا للدليل مر بنا على طريق كربلاء ، فوصلوا إلى موضع المصرع ، فوجدوا جابر بن عبد الله الانصاري وجماعة من بني هاشم ، ورجالاً من آل رسول الله ، وقد وردوا لزيارة قبر الحسين ، فوافوا في وقت واحد ، وتلاقوا بالبكاء والحزن واللطم ، واقاموا المآتم المقرحة للاكباد واجتمع اليهم نساء ذلك السواد ، واقاموا على ذلك أياماً ... » .

وفي جلاء العيون – أيضاً – عن زرارة ، قال : أوصى ابو جعفر بثمانمائة درهم لمأتمه وكان يرى ذلك من السنة ، لأن رسول الله ﷺ قال : « اتخذوا لآل جعفر طعاماً فقد شغلوا » .

وفي تاريخ الطبري : « ... واقبل الناس الى عبد الله بن جعفر الطيار يعزونه فاقبل على جلسائه ، وقال : الحمد لله ، لقد عز علي المصاب بمصرع الحسين ، أن لا اكون آسيته بنفسي فلقد آساه ولداى » .

وفي رياض الأحزان : « ... واقامت ام البنين : زوجة امير المؤمنين العزاء على الحسين ، واجتمع عندها نساء بني

هاشم يندبن الحسين واهل بيته ، وبكت ام سلمة وقالت : فعلوها ، ملأ الله قبورهم ناراً » .

وفي تاريخ الطبري والبداية لابن كثير ، واللهوف وامالي الصدوق : « ... لما خطبت زينب عليها السلام في مجلس يزيد هزت من في المجلس حتى راح الرجل يحدث جليسه بالضلال الذي غمرهم ، فلم ير يزيد مناصاً من أن يخرج الحرم من المجلس إلى خربة لا تكنهم من حرّ ولا برد فأقاموا فيها ينوحون على الحسين ثلاثة ايام ... » .

وفي محاسن البرقي – باب الاطعام للمآتم – : « ... لما رجعت نساء الحسين إلى المدينة ... اقمن حرائر الرسالة ، المأتم على سيد الشهداء ولبسن المسوح والسواد ، نائحات الليل والنهار والامام السجاد يعمل لهن الطعام ... » .

وروى الكليني عن الصادق عليه السلام : « لما قتل الحسين ، أقامت امرأته الكليبية عليه مأتماً ، وبكت وبكين النساء ، حتى جفت دموعهن وذهبت ، فبينا هي كذلك إذ رأت جارية من جواريها تبكي ودموعها تسيل فدعتها فقالت لها : مالك انت من بيننا تسيل دموعك ؟ قالت اني لما اصابني الجهد شربت شربة سويق قال : فأمرت بالاطعام والأسوقة فأكلت وشربت واطعمت وسقت وقالت : انما نريد بذلك أن نتقوى على البكاء على الحسين » .

وفي البحار عن الكافي : « ... واما الرّباب فبكت على ابي عبد الله حتى جفت دموعها فاعلمتها بعض جواريها بأن السويق يسيل الدمعة فأمرت أن يصنع لها السويق لإستدرار الدموع » .

ولم يكتف الائمة واهل البيت باقامة المآتم على شهدائهم حتى وجهوا شيعتهم إلى اقامة المآتم عليهم عليه السلام فعن الامام الباقر عليه السلام أنه قال : « رحم الله عبداً اجتمع مع آخـــر فتذاكروا في أمرنا فان ثالثهما ملك يستغفر لهما ، وما اجتمع اثنان على ذكرنا الا باهى الله بهما الملائكة فاذا اجتمعتم فاشتغلتم بالذكر فان في اجتماعكم ومذاكرتكم احياءنا وخير الناس بعدنا من ذاكر بأمرنا ودعى الى ذكرنا » .

وعن الامام الصــادق عليه السلام أنه قال للفضيل بن يســار : « اتجلسون وتتحدثون ؟ » قال : نعم . فقال عليه السلام : « اما اني احبّ تلك المجالس فأحيوا أمرنا فان من جلس مجلساً يحيي فيه امرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب » .

وفي كامل الزيارات لابن قولويه عن مالك الجهني : ان الباقر عليه السلام قال : « ... في يوم عاشوراء وليندب الحسين ويبكيه ويأمر من في داره بالبــكاء عليه ويقيم في داره مصيبته باظهار الجزع عليه ويتلاقون بالبكاء عليه بعضهم بعضاً في البيوت وليعز بعضهم بعضاً بمصاب الحسين فانا ضامن لهم

- إذا فعلوا ذلك - أن يعطيهم الله ثواب الفى حجة وعمرة وغزوة مع رسول الله والائمة الراشدين » .

ويبدو من بعض الاحاديث : أن ندبة النساء محبوبة - في الشرع - على المعصومين جميعاً وان كان الرجال الاجانب يسمعون اصواتهن فقد اوصى الامام الباقر عليه السلام باستئجار النادبات حتى يندبنه في منى حيث يختلط الرجال والنساء في سفح واحد ويتطلعون جميعاً الى كل صوت غـــير معتاد يرتفع بل ان من هدف الامام أن يسمع الرجال أصوات النوادب فيتساءلوا عنهن وعن من يندبنه في أيام العيد وينتهوا باكتشاف ظلامته فيبلغوها الى مختلف الشعوب ليثيروها حرباً شعواء على الحكام الجائرين الذين اغتصبوا حقه ثم عمدوا اليه فقتلوه بالسم ظلماً .

وان زينب الكبرى لم تتحاش عن ان ترفع صوتها بالنياحة على أخيها الشهيد في كل مناسبة - بين الأعداء وفي يوم الحاديعشر من المحرم بصورة مشهورة كما روى المفيد ابن طاووس « ... ان القوم لما مروا بالنسوة على مصارع قتلاهن ، صحن وضربن وجوههن قال الراوي : فوالله لا انسى زينب بنت علي ، وهي تندب الحسين وتنادي بصوت حزين وقلب كئيب وا محمداه ... فابكت كل عدو وصديق ، حتى جرت دموع الخيل على حوافرها - كما في المنتخب للطريحي - .

وفي بعض الروايات : « ... ثم أن سكينة ، اعتنقت

جسد الحسين وجعلت تندبه ، فاجتمعت عدة من الأعراب حتى جروها عنه » .

وقـال الامام المنتظر عليه السلام – في زيارة الناحيـة – : « فلما نظرن النساء الى الجواد مخزياً ، والسرج عليه ملوياً خرجن من الخدور ناشرات الشعور على الخدود لاطمات ... وبالعويل داعيات ... » .

وفي مقتل الخوارزمي : « ... ونادت ام كلثوم : وامحمداه وا ابتاه ... » .

وفي حديث حماد الكوفي ان الصـادق عليه السلام قال له : « بلغني ان قوماً يأتون قبر ابي عبد الله ، من نواحي الكوفة وناساً من غـيرهم ، ونسـاءاً يندبنـه ، وذلك في النصف من شعبان ، فبين قاريء يقرأ ، وقاص يقص ، ونادب يندب وقائل يقـول المـراثي » فقلت له : نعم ، قد شهـدت بعض ما تصف ، فقال : « الحمد لله الذي جعل في شيعتنا من يفد الينا ويمدحنا ، ويرثي لنا ، وجعل عدونا من يطعن عليهم من قرابتنا وغيرهم ، ويهددونهم ، ويقبحون ما يصنعون . » .

وفي هـذا الحديث تشجيع سـافر لنوادب يندبن الحسين في مجتمع الرجال ، على الحسين في النصف من شعبان .

وقد يستدل المانعون عن الشعائر الحسينية بأن صياح

النساء بسمع الرجال الأجانب حرام لأن صوت المرأة عورة .

والجواب : إن صوت المرأة ليست بعورة ، وانما العورة ترجيع صوت المرأة ، كما قال سبحانه وتعالى : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ، ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً[1]. » فالتغنج بالكلام الذي يجعله مثيراً حرام وليس مطلق الكلام وإلا لما اذن الله به لنساء النبي ﷺ — اللواتي رفعهن فوق مستوى بقية النساء في هذه الآية الكريمة — في قوله عز وجل «... واذا سألتموهن متاعاً ، فاسألوهن من وراء حجاب ...[2] . » فمجرد سؤال متاع من ازواج النبي ﷺ غير ضائر وانما يحظر سؤالهن بلا حجاب لمكان حظر النظر إلى وجه المرأة لا لمكان حظر الاستماع الى صوتها .

على ان السيرة النبوية المقدسة ، طافحة بأن النبي ﷺ كان يسمع النوائح من الاسر المفجوعة ، فيعزيهن ، ويترحم على امواتهن ، وقد امر باقامة النائحة على عمه حمزة : سيد الشهداء وعندما ناحت عليه عمته صفية ، وابنته فاطمة شاركهما في البكاء والحنين في ساحة معركة حنين بمحضر

---

(١) سورة الأحزاب (٣٢) .
(٢) سورة الأحزاب (٥٣) .

جمع من الاصحاب الذين رووا ذلك الحادث . وان فاطمة الزهراء عليها السلام كانت تندب اباها ليلاً ونهاراً، حتى تضايق بها أهل المدينة ، فبعثوا اليها علياً ، ليقول لها : اما أن تبكي ليلاً وتسكت نهاراً . واما أن تبكي نهاراً وتسكت ليلاً .

بل يستفاد من عدد من الاحاديث : أن صراخ النساء على قتلى الطف ، كان محبوباً عند اهل البيت ، حتى شمله دعاء الامام الصادق عليه السلام في حديث معاوية بن وهب ، عن الامام الصادق عليه السلام : « اللهم ارحم تلك الصرخة التي كانت لنا » وفي القاموس « الصرخة : الصيحة الشديدة » فهي باطلاقها شاملة النساء ، كما تشمل الرجال .

وروى الصدوق في العيون : ان دعبل بن علي الخزاعي لما انشد الرضا عليه السلام تائيته المشهورة ، وانتهى الى قوله :

« أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً وقد مات عطشاناً بشط فرات »
« اذن للطمت الخد فاطم عنده واجريت دمع العين في الوجنات »

« لطمت النساء ، وعلا الصراخ من وراء الستر . وبكى الرضا بكاءاً شديداً حتى اغمى عليه مرتين » .

وروى ابو الفرج الاصفهاني ، في الاغاني بسنده : أنه لما دخل الحميري على الصادق عليه السلام اقعد حرمه خلف الستر ، ثم استنشده في رثاء جده الحسين فانشده ابيات كثيرة ،

قال – : راوي الحديث – فرأيت دمـوع جعفر تنحدر على خديه ، وارتفع الصراخ من داره حتى امره بالامساك،فامسك

وروى في الـكامل عن ابي هـارون المكفوف ، قال : « دخلت على ابي عبد الله فقال : « انشدني » فانشدته ٠ فقال: « لا كما تنشدون وكما ترثيه عند قبره » فانشدته :

« امرر على جدث الحسين وقل لا عظمه الزكيـة »

فبكي ، فلما بكى امسكت فقال : « مر » فمررت ، ثم قال : « زدني » فانشدته

« مريم قومي واندبي مولاك وعلى الحسين فاعولى ببكاك »

فبكى ، وتهايج النساء .

وروى في الكامل – أيضاً – عن عبد الله بن غالب ، قال « دخلت على ابي عبد الله ، فانشدته مرثية الحسين بن علي ، فلما انتهيت الى هذا الموضع :

« فيا لبلية يكسو حسينـا بمسفـاه الثرى عفر التراب »

صاحت باكية من وراء الستر « يا ابتاه » .

وان فاطمة الزهراء عليها السلام ، لما خرجت الى المسجد، لتعلن احتجاجها على ابي بكر . « أنت انة اجهش لها القوم بالبكاء » .

وبعد أن اتمت خطابها انعطفت على قبر ابيها واخذت قبضة من تراب القبر . وشمتها ، ثم انشأت تقول :

« ماذا على من شم تربة احمد ان لا يشم مدى الزمان غواليا »

... الخ .

وروى انها خرجت في اليوم الثامن من وفاة أبيها الى قبره وصرخت فتبادرت النساء ، وخرجت الولائد والولدان ، وضج الناس وجاؤا من كل مكان . واطفئت المصابيح ، لكي لا تبين صفحات النساء .

وعند وفاة امير المؤمنين عليه السلام خرجت زينب وجميع النساء ، وشققن الجيوب ، ولطمن الخدود ، ووقعت الصيحة فيهن ، حتى جاء الناس يهرعون وصاحوا صياحاً عظيماً ، ارتجت له الكوفة بأهلها .

فهذه الاحاديث تدل على جواز ندبة النساء ، بمحضر من الرجال الاجانب ، لفعل فاطمة الزهراء عليها السلام وتقرير عدد من المعصومين لفعل حرمهم وغير حرمهم . بالاضافة الى ورود الادلة على جواز الاصغاء الى صوت المرأة بلا ضرورة مطلقاً .

ففي الكافي ، عن ابي بصير ، قال : « كنت جالساً عند ابي عبد الله عليه السلام فاستأذنت علينا ام خالد ، التي كان قطعها يوسف بن عمر ، فقال ابو عبد الله : « أيسرك ان تسمع

كلامها ؟ » فقلت : نعم . فاذن لها واجلسني على الطنفسة ، قال : ثم دخلت فتكلمت ، فاذا هي امرأة بليغة » .

ولو كان الاستماع الى صوت المرأة بلا ضرورة حراماً ، لما سمح الامام لابي بصيران يستمع اليها .

وحتى لو كان الاصغاء الى صوت المرأة حراماً ، لايحرم المأتم الذي يرتفع فيه صوت النساء فيصغى اليه الرجال الأجانب . بل يظل المأتم مستحباً ، لأن حرمة الخارج المقارن لا يغير عنوان المقارن به وقد روى في الكافي صحيحاً عن زرارة قال : « حضر ابو جعفر جنازة رجل من قريش وانا معه ، وكان في الناس « عطا » فصرخت صارخة ، فقال « عطا » لتسكتن او لنرجعن ، فلم تسكت ، فرجع « عطا » فقلت لابي جعفر : ان « عطا » رجع ، لمكان صراخ الصارخة فقال : « امض بنا ، فلو انا إذا رأينا شيئاً من الباطل تركنا له الحق ، لم نقض على حق مسلم » .

فالمآتم الرجالية والنسائية تجوز بل تُستحب على نمط واحد ، وان استلزمت سماع الرجال الاجانب صراخ النساء الاجنبيات .

لبس السواد

ان السواد اغمض الألوان ، والنظر اليه يولد في النفس كآبة وانقباضاً ، فهو – بطبيعته – رمز الحزن ، فلذلك اعتاد المفجوعون لمصيبة – مهما كان لونها – أن يتقمصوا السواد ، اشعاراً بأنهم محزونون وهذه عادة سبقت الاسلام وبقيت بعده ، ولم تختص بالمسلمين بل جرت في غيرهم سواءاً بسواء . فان الفرس والروم والروس والالمان يسودون رؤس أعلامهم ، إذا نكبوا بكارثة زلزال او غرق سفينة ، او خسارة معركة ، والأفراد يحملون الاشرطة السوداء في موت قريب او صديق .

وقد ورث الشيعة – فيما ورثوه عن اسلافهم – من الشعارات الحسينية ، لبس السواد ، واكساء الجدران بالسواد ، تعبيراً عن تفجعهم بفاجعة الطف . وهو شعار موح يخلع على

البلاد جواً حزيناً ، يكفي للتسرب الى القلوب ، واحياء ثورة الامام الشهيد ، عن طريق التألم والاكتئاب .

كما أن لبس السواد ، يؤثر في نفوس لابسيه ، تأثيراً قوياً يكهرب اعصابهم ، ويوحي اليهم ابداً ، بأنهم مفجعون بكارثة الطف ، فينفعلون بهـــذا الايحاء الدائم ، ويتحيزون للحسين ومبادئه واهدافه ، ويثورون ضـد يزيد ومبادئه واهدافه — على نحو ماسبق في البكاء — .

ويمتاز لبس السواد على البكاء ، بأن البكاء تعبير عن فورة موقتة سرعان ماتنتفض ثم لاتلبث ان تهدأ ، بينما السواد يوقظ في قلوب لابسيه تذكراً دائم الالفات ، كدقات الساعة الرتيبة المستمرة .

على أن لبس السواد في العرف شعار يرمز إلى فجيعة لابسه بمصاب ، فمن الطبيعي أن يكون مستحباً في ذكرى استشهاد الامام الحسين عليه‌السلام للعمومات النادبة إلى تجديد عزائه كل عام .

غير ان هناك رأي يقول بحرمة لبس السواد ، استناداً الى الروايات الناهية عن لبس السواد ، فانها اما قاصرة الدلالة او قاصرة السند او قاصرة السند والدلالة معاً .

وقد ذكر صاحب الحدائق هذه الروايات ، ثم عقبها بقوله :

« ولم يستبعد استثناء لبس السواد في مأتم الحسين عليه السلام من هذه الاخبار لما استفاضت به الاخبار من الامر باظهار شعائر الاحزان عليه » .

والذي يظهر من ملاحظة مجموع الاخبار الواردة في باب لباس المصلي وغيره : أن أفضل الألوان هو البياض . وأن كل لون مشبع مكروه . فيكون السواد ـ الذي هو أشد الألوان تشبعاً ـ اكثر الالوان كراهة في الحالات الاعتيادية ، ولكن كل مكروه جايز، وما كره الله شيئاً الا لأن فيه مصلحة ولو لم تكن فيه مصلحة مطلقاً لحرمه .

واما التعليل الوارد في بعض الروايات الناهية عن لبس السواد فيكفي لحمل النهي فيها على الكراهة ، لما هو مثبت في الفقه ، من أن التعليل في النهي من امارات الكراهة ، وان التعليل في الامر من امارات الاستحباب ، بالاضافة إلى ان التعليل نفسه غير صالح دليلاً للتحريم لأن كون شيء لباس او لغة اهل النار ، لايسبب حرمة نظيره في الدنيا وفي بعض الاخبار تعيين للغة اهل النار ، ودعاء اهل النار ، وكثير مما يتعلق بأهل النار ، فلو كان مجرد كون نظيرها مما يتعلق بأهل النار ، يسبب تحريمها في الدنيا ، لحرم كثير من الاشياء المباحة بل المستحبة ، التي لا يلتزم بحرمتها فقيه .

اضف الى ذلك ان لباس اهل النار لو كان حراماً ، لمنعوا

منه في النار كما منعوا منه في الدنيـا ، ولسبب لهم مضاعفة العذاب ، كما ورد في بعض الأخبار بالنسبة إلى التلفظ بكلمات الكفر ، بل لم يسمح لهم بلبسه ، كما لا يسمح لهم بمماطاة بقية المنكرات .

كل ذلك إلى جانب انصراف الأخبار الناهية ـ نهي كراهة ـ عن لبس السواد ، الى جعل اللباس الأسود شعاراً ، على نحو ما فعل فرعون ، ويفعل القسس والرهبان ، وكما فعل بنو العباس على ما يشهد له ما رواه في الوسائل ، عن امير المؤمنين عليه السلام ، من انه قال : « لاتلبسوا السواد فانه لباس فرعون». فاتخاذ اللباس الأسود على نحو ما فعل فرعون مكروه ، لا مطلق اتخاذ السواد .

فتكون دلالة هذه الأخبـــار ، منحصرة ، في ان جعل اللباس الأسود شعاراً مكروه ، لأنه شعار اعداء الله . واما لبس السواد لأجل مصيبة ، فترة موقتة ، او طول العمر ، لمصيبة ، او بلا مصيبة ، ليس مكروهاً ، كما فعـــل الأئمة الطاهرون عليهم السلام .

فاذن لا دلالة لهذه الأخبار ، على كراهة لبس السواد ـ في غير الشعار ـ مطلقاً . وحتى لو كانت هذه الأخبـــار صحاحاً صراحاً ، في حرمة لبس السواد مطلقـاً لوجب اسقاطها ، او حملها على الكراهة لأن أكثر المعصومين عليهم السلام لبسوا السواد في المصائب وفي غير المصائب .

فرسول الله ﷺ قد لبس السواد كما في مستدرك الوسائل روى الصدوق في الامالي عن الصادق عليه السلام : « خرج رسول الله ﷺ وعليه خميصة قد اشتمل بها . فقيل له : يا رسول الله . من كساك هذا ؟ فقال : كساني حبيبي » .

وفي المستدرك والامالي : الخميصة خز اسود معلم وفي المصباح الخميصة كساء اسود معلم الطرفين ، ويكون من خز او صوف . وفي المنجد الخميصة مؤنث الخميص : ثوب اسود مربع .

وفي مصباح الفقيه : عن معاوية بن عمار . عن ابي عبد الله عليه السلام قال : سمعته يقول : « دخل رسول الله الحرم – يوم دخل مكة – وعليه عمامة سوداء ، وعليه السلاح » .

وفي المستدرك عن غوالي اللئالي : « كان لرسول الله ﷺ عمامة سوداء يتعمم بها ، ويصلي فيها » .

وان أمير المؤمنين عليه السلام قد لبس السواد :

ففي المستدرك : عن ابي ظبيان ، قال : خرج علينا علي عليه السلام في ازار اصفر ، وخميصة سوداء .

وان الامام الحسن المجتبى عليه السلام ، قد لبس السواد ، حداداً على ابيه امير المؤمنين عليه السلام : ففي ناسخ التواريخ –

في المجلد الخاص بحياة الامام الحسن عليه السلام - قال : « ... لما دفن امير المؤمنين عليه السلام وقتل ابن ملجم خرج ابن عباس الى الناس فقال : ان امير المؤمنين توفى وقد ترك لكم خلفاً فان احببتم خرج اليكم وان كرهتم فلا احد على احد . فبكى الناس . وقالوا : بل يخرج الينا فخرج الامام الحسن عليه السلام الى المسجد بثوب اسود ، فعلا المنبر وقال : ... »

وان الامام الحسين عليه السلام ، قد لبس السواد .

ففي الوسائل ، والكافي ، وروح المعاني وكثير من المقاتل عن ابي جعفر عليه السلام أنه قال : « قتل الحسين عليه السلام ، وعليه جبة خز دكناء » وهو الاسود .

وان الامام زين العابدين (ع) قد لبس السواد .

ففي مستدرك الوسائل ، عليه السلام دعائم الاسلام : « ان علي بن الحسين رءى وعليه دراعة سوداء وطيلسان » .

وفي المستدرك ، عن مكارم الأخلاق للطبرسي ، عن عبد الله بن سليمان : « ان علي بن الحسين دخل المسجد ، وعليه عمامة سوداء قد أرسل طرفيها بين منكبيه » .

واما الامام الصادق عليه السلام ، فانه كان يتعمد لبس السواد لإعلان حلية لبسه ، وان كونه لباس أهل النار لايدل على حرمته ودحضاً للرأي القائل بحرمة لبس السواد ، لأنه لباس أهل النار .

ففي الوسائل عن حذيفة بن منصور قال : كنت عند ابي عبد الله بالحـيرة ، فاتاه رسول ابي العباس الخليفـة يدعوه ، فدعى بمطر احد وجهيه اسود والآخر ابيض ، فلبسه ثم قال : « اما اني اعلم انه لباس أهل النار » .

والممطر ، على وزن منبر : لباس يتوقى به المطر .

ولما كان الامام الصادق ، يماصر العباسيين الذين اتخذوا السواد شعاراً ، فكره الإمام اتخاذ السواد شعاراً ، وألح بعض المرجفين للخلط بين كراهة اتخاذ السواد شعاراً ، وحرمة مطلق لبس السواد،فالحف الشيعة على الإمام الصادق لإستيضاح الأمر ، مأولين ما رووا عن لبس المعصومين السواد ، عمـد الامام الصادق عليه السلام الى طريقة ترفض الشك والتأويل فلبس السواد بنفسه واعلن : ان سـواد الملابس لايكشف عن سوء سريرة ، مادام المرء ابيض القلب سليم النفس .

ففي الوسائل ، عن العلل عن داود الرقي : كانت الشيعة تسأل ابا عبد الله عن لبس السواد فوجدناه قاعداً عليه جبة سوداء وقلنسوة سوداء وخف سود مبطن بسواد . ثم فتق ناحية منـه وقال : « اما ان قطنه اسود . ثم قال : « بيض قلبك والبس ما شئت » .

وان الامام علي بن محمد الهادي عليه السلام كان يلبس السواد .

ففي دلائل الطبري قال : حدثني ابو عبد الله القمي باسناده

عن محمد بن اسماعيل الكاتب قال : حدثني ابي قال : كنت بسرّ من رأى (سامراء) أسير في درب الخصى فرأيت « يزداد » النصراني : تلميذ « بختيشوع » وهو منصرف من دار « موسى » وافضى بنا الحديث الى أن قال لي : أترى هذا الجدار ؟ تدري من صاحبه ؟ قلت : ومن صاحبه قال : هذا الفتى العلوي الحجازي علي بن محمد بن الرضا – وكنا نسير في فناء داره – قلت لـ « يزداد » : نعم فما شأنه ؟ قال : ان كان مخلوق يعلم الغيب فهو . قلت : وكيف ذلك ؟ قال : اخبرك عنه بعجوبة لم تسمع بمثلها قط أبداً ولا غيرك من الناس ولكن لى الله عليك كفيل وراع انك لاتحدث بها عني أحداً فاني رجل طبيب ولي معيشة أرعاها عند هذا السلطان وبلغني أن الخليفة استقدمه من الحجاز فرقا منه لئلا ينصرف اليه وجوه الناس فيخرج هذا الأمر عنهم – يعني بني العباس – قلت : لك ذلك علي فحدثني به فليس عليك بأس انما أنت رجل نصراني لا يهمك أحد فيما تحدث به عن هؤلاء القوم . قال : نعم . احدثك اني لقيته منذ ايام وهو على فرس ادهم وعليه ثياب سود وعمامة سوداء وهو اسود اللون فلما بصرت به وقفت اعظاماً له وقلت في نفسي – لا وحق المسيح ما خرجت من فمي إلى أحد من الناس قلت في نفسي ثياب سود ودابة سوداء ورجل اسود سواد في سواد في سواد. فلما بلغ إلي أحدّ النظر إلي وقال : « قلبك اسود مما ترى عيناك من سواد في سواد » . فقلت له : أجل فلا تحدث به أحداً فما صنعت وما

قلت . له قال : اسقطت في يدي فلم احـر جواباً قلت له : فما أبيض قلبك لما شاهدت قال: الله اعلم . فلما اعتل «يزداد» بعث إلي فحضرت عنده فقال : ان قلبي أبيض بعد سواد فانا اشهد : أن لا إله الا الله وان محمداً رسول الله وان علي بن محمد حجة الله على خلقه وناموسه الأعظم . ثم مات في مرضه ذلك وحضرت الصلاة عليه » .

وهذه شواهد على أن لبس السواد مطلقاً جايز لعمل رسول الله وامير المؤمنين والامام السجـاد والامام الصـادق والامام الهادي عليهم الصلاة وتقرير جميع الأئمة عليهم السلام .

بل الذي يستفاد من مجموع التواريخ والأخبار التي تحدثت عن لباس السواد : ان لبس السـواد حـداداً على فقيه عادة طبيعية لا تختص بجيل ولا تنحصر في الانسان فقط بل تشمل غيره أيضاً .

فقد روى ابن قولويه في الكامل عن هشـام بن سعـد قال اخبرني المشيخة « ان الملك الذي جاء الى رسول الله واخبره بقتل الحسين بن علي كان ملك البحـار وذلك أن ملكاً من ملائكة الفردوس نزل على البحر ونشر اجنحته عليه ثم صاح صيحة وقال يا أهل البحـار البسوا أثواب الحزن فان فرخ رسول الله مذبوح ثم حمل من تربته في أجنحته إلى السماوات فلم يبق ملك فيها إلا شمها وصار عنده لها أثر ولعن قتلته واشياعهم واتباعهم » .

وهذا خبر لا نستطيع أن نحدد مدلوله بالضبط لأننا لا ندري المراد من أهل البحار هل هم الحيوانات السابحة فيها أم أن لها أهلاً من نوع الجن والملك لم نطلع عليهم ؟؟ كما لا نستطيع أن نحدد كيفية لبسهم السواد إلا أن الذي لايمكن انكاره هو أن هذا الخبر يدل على أن لبس أثواب الحزن على كل فقيد عظيم عادة طبيعية ندب اليها حتى أهل البحار في مصاب الامام الحسين عليه السلام .

واسترسالاً مع هذه العادة لبس أهل البيت السواد على امام الحسين عليه السلام .

فقد روى البرقي في المحاسن ، عن عمر بن علي بن الحسين قال « لما قتل الحسين بن علي ، لبس نساء بني هاشم السواد والمسوح وهنّ لا يشتكين من حرّ ولا برد وكان علي بن الحسين يعمل لهن الطعام » .

وبقيت هذه العادة مطردة في الشيعة ايام الأئمة الأطهار عليهم السلام حيث كانوا يلبسون السواد في أول يوم من شهر محرم وينزعونه يوم التاسع من شهر الربيع الأول ، واقرهم الأئمة على هذه العادة .

ففي المحتضر ، باسناد متصل الى احمد بن اسحاق القمي عن ابي محمد الحسن العسكري عن امير المؤمنين عليه السلام — في فضل اليوم التاسع من شهر الربيع الأول — أنه قال : « هذا

يوم الاستراحة ويوم تنفيس الكربة ويوم الغدير الثاني ... ويوم نزع السواد ويوم ندامة الظالم ... الخ ». وهو حديث طويل يشتمل على كثير من الحقائق .

وروى السيد ابن طاووس في « الاقبال » نقلاً عن كتاب « النشر والطي » باسناده عن الامام الرضا عليه السلام أنه قال : « إذا كان يوم القيامة ، زفت أربعة ايام الى الله ، كما تزف العروس إلى خدرها قيل ما هذه الأيام ؟ قال : يوم الأضحى ، ويوم الفطر ، ويوم الجمعة ويوم الغدير وأن يوم الغدير بين الأضحى والفطر والجمعة كالقمر بين الكواكب وهو اليوم الذي نجى الله فيه ابراهيم الخليل من النار ... ويوم لبس الثياب ، ونزع السواد ... » .

وستبقى هذه العادة حتى يظهر الإمام المنتظر عليه السلام ، فيكون شعارهم : « يا لثارات الحسين » وتكون علامتهم اللباس الأسود .

ففي الوسائل عن علي بن المغيرة عن ابي جعفر قال : كأني بعبد الله بن شريك العامري ، عليه عمامة سوداء ذؤابتاها بين كتفيه ، يصعد الخف في الجبل ، بين يدي قائمنا أهل البيت ، في أربعة آلاف ، يكبر ويكبرون » .

وابن شريك العامري ليس من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله —

كما يظهر من انتسابه — حتى يكون لبس العمامة السوداء رمز سيادته وانما هي رمز حداده على الامام الحسين ، كما أن نغمة أصحاب الامام المنتظر : « يا لثارات الحسين » دلالة على أنها انتقامية من المتطاولين على الاسلام الذي مثل الثورة من أجله الامام الحسين عليه السلام .

شق الجيب

وشق الجيب ، أمر طبيعي ينساق إليه المصاب ، بدفعة طبيعية عفوية ، إذا ألحت عليه المصيبة ، اكثر من احتمال اعصابه ، لأن الانسان لا يقاسي مصيبة إلا وترتفع درجة حرارته ، وتزداد ضربات قلبه فيحتاج الى مزيد من التهوية حتى لا ينصدع ، فتسرع الرئة في التنفس ، غير أن حاجة القلب الى التهوية قد تكون اكثر من قدرة الرئة على التنفس فيبادر المصاب الى شق جيبه ، بإيحاء طبيعي - كما يغمض أجفانه بحركة عصبية طبيعية ، كلما قرب من عينيه شيء خطر - ليوفر على القلب التهوية من خارج صدره .

ولهذا يكون شق الجيب ، من نوع غمض الأجفان ، غير داخل في نطاق الشرع لأنه يصدر غالباً بلا وعي تام ، بالإضافة الى انه كثيراً ما ينقذ المصاب عن السكتة القلبية .

وقد روى الكشي وغيره بأسانيد عديدة : « ان أبا محمد

(العسكري) خرج في جنازة أبي الحسن ، وقميصه مشقوق ، فكتب إليه ابن عون الأبرش: قرابة نجاح بن سلمة: من رأيت ؟ أو من بلغك من الأئمة شق ثوبه في مثل هـذا ؟ فكتب إليه ابو محمد : يا أحمق ، وما يدريك ما هذا ؟ قد شق موسى على هارون » .

وروى المفيد ، عن علي بن الحسين عليه السلام : « ان زينب لما سمعت الحسين ينشد هذه الأبيات :

« يا دهر اف لك من خليل كم لك بالاشراق والأصيل ؟ »

لطمت وجهها ، وهوت الى جيبها وشقته ، وخرت مغشية عليها » .

وروى السيد ابن طاوس : « ... فأمر يزيد بالحبـال فقطعت ، ثم وضع رأس الحسين بين يديه ، وأجلس النساء خلفه لئلا ينظرن إليه فرآه علي بن الحسين، فلم يأكل الرؤوس بعد ذلك ابداً ، وأما زينب فإنها لما رأته اهوت الى جيبها فشقته ، ثم نادت بصوت حزين يقرح القلوب يا حسيناه .. » وفي الدمعة الساكبة ـ للسيد هاشم البحراني ـ أن بني هاشم لما بلغوا كربلاء ـ بعد الرجوع من المدينة ـ اخذوا بالبكاء والنحيب واللطم، وأقاموا العزاء ثلاثة ايام فخرجت زينب في الجمع وأهوت الى جيبها فشقته ونادت بصوت حزين: واحسيناه، وا حبيب رسول الله ، وابن مكة ومنى وابن فاطمـة الزهراء وابن علي المرتضي آه . ثم آه ووقعت مغشياً عليها .

وروى الشيخ في التهذيب ، عن الإمام الصادق عليه السلام : انه قال : « ولقد شققن الفاطميات الجيوب ولطمن الخدود على الحسين بن علي . وعلى مثله تلطم الخـــدود ، وتشق الجيوب » .

وقد روى ـ كما سبق ـ :« أن زينب وجميع النساء شققن الجيوب ولطمن الخدود» ـ في وفاة الإمام امير المؤمنين عليه السلام.

على أن الشرع أباح شق الجيوب ، ليس على الإمام الحسين عليه السلام فقط ، ولا على المعصومين عليهم السلام فحسب ، وإنما لكل رجل أن يشق جيبه في موت كل قريب له ، عدى الولد والزوجة ، ولكل امرأة أن تشق جيبها على كل قريب لها ، سوى من استثنى .

ففي جواهر الكلام ، عن خالد بن سدير قال : « سألت ابا عبد الله عن رجل شق ثوبه على ابيه او على امه او على اخيه او على قريب له ؟ فقال : لا بأس بشق الجيوب ، قد شق موسى بن عمران على اخيه هارون ولا يشق الوالد على ولده ، ولا زوج على امرأته ، وتشق المرأة على زوجها .. ولقد شققن الجيوب ، ولطمن الخدود الفاطميات على الحسين بن علي ، وعلى مثله تشق الجيوب ، وتلطم الخدود » .

وهذه رواية صحيحة قد اتفق الأصحاب على العمل به حق ابن إدريس الذي لا يعمل بالآحاد .

إذن فلا مانع من شق الجيوب على كل فقيد ، عدى من استثنى كما لا مانع من شق الجيوب على الإمام الحسين عليه‌السلام بل يستحب لدخوله في عموم العزاء المندوب تجديده على الحسين، ولأن الإمام الصادق ندب إليه في رواية الشيخ في التهذيب ورواية خالد بن سدير ، بل يمكن التعدي الى غير الإمام الحسين لمكان كلمة « مثل » في هاتين الروايتين .

اللطم

لقد تألم كل شيعي عاصر فاجعة الطف ، وكل شيعي يولد بعدها الى يوم القيامة ، تألماً عاطفياً وعقائدياً لا يوازيه التألم بالكوارث الشخصية ، فقد تمثلت في تلك الحادثة الرهيبة المظلومية من جانب اهل البيت في اجلى صورها ، وتمثلت فيها الوحشية من جانب بني امية في ابشع صورها ، وهذا اللقاء الغريب بين المظلومية في اجلى صورها والوحشية في ابشع صورها كان جديراً بإثارة عاطفية فائرة في كل من يشعر بأقل ارتباط مع اهل البيت ، بل في كل من تنبض فيه الإنسانية . كما أن هذه الصدمة العظيمة نزلت على شخصية مقدسة ، يعتبرها الشيعة ثالث ائمتهم وابن بنت رسولهم العظيم فكانت الصدمة جديرة باثارة عقائدية في كل من يؤمن بالتشيع عقيدة دينية صحيحة وقد ازدوجت هاتان الإثارتان في الشيعة فكانت مصيبتهم بتلك الكارثة أعظم من مصيبتهم بكوارثهم الشخصية .

والإنسان المصاب يشعر بثقل المصيبة على كاهله فيحاول التسلل منها حتى يعود الى حالته الطبيعية ، ومن الناحية النفسية ان المصيبة إذا داهمت انساناً لم يعرف كيف يتخلص منها فانه يظل يرزح تحتها وينكمش عليها حتى تترسب في أعماقه على صورة عقد تأكله وتنخر فيه حتى لا تبقى منه سوى كيان منخور ، وإن عرف كيف يتخلص منها فانها تنحسر عنه دون أن تخلف وراءها غير اثر تجريبي تنفعه ولا تؤذيه .

وطريقة التخلص من المصائب هي التعبير المناسب عنها ، فإذا كانت المصيبة هينة يمكن التخلص بالتعبير اللفظي ، وإذا كانت كبيرة ترفض الزوال إلا بالتعبير اللفظي والبكائي ، وإن كانت اكبر احتاجت الى تعبيرات اخرى .

وحيث أن مصيبة الشيعة بالامام الحسين عليه السلام كانت اعظم المصائب احتاج التخلص منها الى التعبير عنها بجميع ألوان التعبير .

وحيث كان الشيعة يعانون — في نفس الوقت — عقدة الانكار بالنسبة الى أنفسهم وبالنسبة الى فاجعة الطف نفسها ، تحت وطئة الأحكام المعاندة التي اختلفت عليهم طوال ألف عام ، احتاجوا الى أن يكون التعبير تعبيراً عاماً يخلصهم من وطئة المصيبة ومن عقدة الإنكار فاضطروا الى أن يجعلوا تعبيراتهم جماهيرية علنية ، فكان من الطبيعي والعفوي بالنسبة

إليهم تنظيم مواكب الحزن بصورة تجمع كافة عناصر التعبير والإلفات .

غير أن الشيعة لم يقدروا على هذا التعبير الجريء، عندما كانوا يرزحون في ظلمات بني امية وبني العباس، وإنما اختلفت عليهم الظروف القاسية والرخية، اختلاف الفصول على مشاتل الورد فاختلفت تعبيراتهم باختلافها فنظمت تاريخهم خمسة أدوار بالتسلسل كما يلي :

الدور الأول: دور الأئمة الاطهار عليهم السلام الذي انحصر فيه تعبير الشيعة على تجمع نفر منهم في بيت أحدهم لإنشاد فرد منهم ابياتاً من الشعر او تلاوته أحاديث في رثاء اهل البيت وبكاء الآخرين بكل تكتم وإخفاء ، تقية الحكومات الظالمة ان تطيش بهم في جنون فتطير رؤوسهم الى عروش الحكام او تزج بهم في أعماق السجون .. فإذا لم تتمالك نساؤهم عن الصراخ لسماع المأساة واستجوبتهم الجلاوزة كان عليهم التذرع بموت صبي او احتضار صبية .

والدور الثاني : دور بني العباس الذين ظهروا على المسرح باسم الانتصار للامام الحسين عليه السلام فجعلوا شعارهم السواد حداداً على شهيد كربلاء . فرغم انهم انتهزوا من ظلامة الإمام الحسين عليه السلام واجهة لاطماعهم ارتدوا على الامام الحسين فور ما نجحوا في انتزاع السلطة من ايدي بني امية ، لأنهم وجدوا أن ثورة الحسين لم تكن على بني امية فحسب وإنما

كانت على الظالمين جميعاً فهي تهدد مصالحهم بصورة مباشرة بنفس الأسلوب الذي هددت به مصالح بني اميـــة فحاولوا القضاء عليها غير انه كان يصعب عليهم إعلان النكوص على اعقابهم أمام الجماهير التي حركوها وركبوها ثأراً للامام الحسين عليه‌السلام فاتخذوا موقفاً مرتبكاً لم يزل يتأرجح حتى أخريات أيامهم فكان أحدهم يشيد مرقد الامام الحسين والآخر يهدمه وواحد منهم يشجع زيارته والثاني يقطع الأيدي والرؤوس من الزوار . ولكن جميعهم اتفقوا على إطلاق اسم الحسين وتحديد التشيع فتوسعت مجالس التأبين على الامام الشهيد وعلت برثائه المنابر ولكن في إطار محدود يفصله عن حركة التشيع .

والدور الثالث : دور البويهيين والديالمة والفاطميين ، وخاصة أيام معزّ الدولة الديلمي ، الذين رفعـــوا الارهاب وأطلقوا طاقات الشيعة ، ومكنوهم من إخراج مجالس التأبين عن الدور الى الجامع والشوارع والساحات العامة . وإعلان الحداد الرسمي العام يوم عاشوراء وإغلاق الأسواق ، وتنظيم المواكب المتجولة في الشوارع والساحات .

والدور الرابع : دور الصفويين ، وخاصة عهد العلامة المجلسي الذي شجع الشيعة على ممارسة شعائرهم بكل حرية ، فأضافوا إليها التمثيل الذي كان إبداعاً منهم لتجسيد المأساة .

والدور الخامس : دور الفقهاء المتأخرين ، وعلى رأسهم الشيخ مرتضى الانصاري ، وآية الله الدربندي ، حيث أكثرت

الشيعة من مواكب السلاسل والتطبير ، بعد ما كانت قليلة محدودة .

والحقيقة : أن الشيعة ـ منذ أن استشهد الامام الحسين عليه السلام ـ أصيبوا بجرح عاصف لم يندمل ، فحق لهم التعبير عن تألمهم ، ولو أن الشيعة ـ في عهود الأئمة عليهم السلام ـ وجدوا الحرية الكاملة لأقاموا هذه الشعائر القائمة اليوم وأكثر، غير انهم لم يكونوا يجدون الحرية الكافية للتعبير الكامل عن مدى انفعالهم في كل العصور ، لأن انحراف السلطات الحاكمة كان اثيراً في تحديد تعبيرهم ولكنهم تمردوا على الكبت وأبوا الا انتزاع حرياتهم واحدة واحدة بالقوة تارة وبالتضحيات تارات ، فساروا في الدرب الشائك ، حتى ملكوا إرادتهم واستطاعوا التعبير عن تألمهم البليغ لمصرع الإمام الحسين عليه السلام بهذه الشعائر .

وأول موكب اتت به الشيعة ـ في هذا المجال ـ هو موكب «اللطم» . وكيفيته ان يتجمع حشد من الشيعة ـ ايام العشرة الاولى من شهر محرم الحرام ، وفي وفيات المعصومين عليهم السلام ـ في مكان مقدس لضرب انفسهم لدماً على الصدور وربما لطماً على الخدود وضرباً على الرؤوس . فيتجردون الى نصف أبدانهم ويمارسون عملية اللدم واللطم بأساليب منسقة حزينة ، ولتنسيق الضربات التي ينهالون بها على صدورهم يصعد شاعر على منبر وينشد قصائد منظومة بأسلوب خاص ، تذكر

اللاطمين بمصائب اهل البيت وتحافظ نبراتها على وحدة الضرب، وهم يتجاوبون مع الشاعر في ترديد بعض الأبيات .

ويطلقون على هذه العملية اسم : « اللطم » .

وهؤلاء قد يلطمون في الأماكن الخاصة ، وربما ينظمون أنفسهم في سلسلة مواكب - في مكان معين - ثم يخرجون منه الى الشوارع وهم يهزجون بأبيات قصيرة ، ويلطمون بأسلوب معين تناسب مسيرهم وتنتهي مسيرتهم - عادة - بانتهائها الى أحد الأماكن المقدسة كالعتبات أو المساجد .

ومن الطبيعي أن يزدلف حول هـــذه المواكب - طوال مسيرتها حشد كثير من مختلف الطبقات على جانبي الطريق ، ويلتفت إليها كل من يسمع اهازيجها او اصوات ضرباتهم الحزينة ثم ينفعل بهذه العملية التي تشبه العمليات الانتحارية التي تكشف عن انفجار عاطفي جارف - فينفجر بالبكاء والذكريات والخواطر، وينقلب الجو الهادىء - في مدينة كاملة - بين لحظة وأخرى ، الى جو عاطفي حزين قد لا يوجد نظيره في المآتم التي يتفرع المنبر فيها خطيب مصقع لأن الخطيب مهما بلغ لا يملك سوى كلام مهما بلغ يكون تأثيره محدوداً بينما يقدر موكب واحد على تطوير الجو كله في مدينة كاملة فيتأثر به كل من يعيشه من حيث يشاء او لا يشاء .

وبهذه الحقيقة يفسر ما نجده من بعض القساة الذين تستعصي دموعهم على الخطباء ، وتتحادر لمشهد موكب اللطم .

واللطم تعبير عفوي عن استبداد مصيبة بانسان، فلا يختص بوقت دون وقت ومجتمع دون مجتمع، ويظهر من بعض النصوص ان اللطم ليس مختصاً بالدنيا ، ففي الجنة لطمت الحور على الحسين عليه السلام ، كما في (زيارة الناحية) : (... ولطمت عليك الحور العين ..) وعندما أنشد دعبل الامام الرضا عليه السلام قوله:

أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً   وقد مات عطشاناً بشطفرات
إذن للطمت الخد فاطم عنده   وأجريت دمع العين في الوجنات

لم يقل له الامام الرضا : من أين علمت ذلك ؟ لأنه تعبير طبيعي عفوي لابد ان يصدر عن كل من داهمته فاجعة كبرى.

ويكفي دليلا على إباحة اللطم ، على المعصومين عامة وعلى الإمام الحسين خاصة ، عدم ورود النهي عنه ، فيشمله أصل الإباحة ، الثابت بالعمومات الدالة على أن « كل شيء مطلق ، حتى يرد فيه نهي » و « كل شيء لك حلال ، حتى تعرف انه حرام » و « الأشياء مطلقة ما لم يرد عليك أمر أو نهي » .

ويدل على رجحان اللطم على الإمام الحسين عليه السلام ثلاثة أنواع من الأدلة :

النوع الاول : الادلة العامة ، التي تشجع اقامة العزاء على الحسين عليه السلام . كقول النبي صلى الله عليه وآله لفاطمة الزهراء عليها السلام ـ عندما أخبرها بقتل الحسين فجزعت فسلاها ، واصفاً

لشيعته بأنهم : « ... يجددون العزاء عليه كل عام » ـ أي على الحسين ـ واللطم من المظاهر الجلية لتجديد العزاء .

النوع الثاني : الأدلة الخاصة النادبة الى اللطم على الامام الحسين عليه السلام كقول الامام الصادق عليه السلام ـ في حديثين روى احدهما صاحب الجواهر عن خالد بن سدير ، وروى الثاني الشيخ الطوسي في التهذيب : «ولقد شققن الجيوب الفاطميات، ولطمن الخدود الفاطميات على الحسين بن علي، وعلى مثله تلطم الخدود ، وتشق الجيوب » .

النوع الثالث : الأدلة الخاصة التي تدل على أن الفاطميات لطمن على الامام الحسين عليه السلام، في حياته وبعد شهادته ـ وقد سبقت عدة أحاديث ، تدل على ذلك في الحديث عن شق الجيب ـ وفي عديد من الاحاديث وكثير من المقاتل توجد النصوص التالية : وعندما ورد الحسين الى كربلاء وأخبر بمصيره ومصير آله فيها « بكى النسوة ، ولطمن الخدود ، وشققن الجيوب » . وفي ليلة عاشوراء حينما انشد ابياتاً ترمز الى دنو الموت منه « ... ثم اهوت زينب الى جيبها فشقته ولطمت على وجهها ، وبكى النسوة معها ولطمن الخدود » . ولما خطب الحسين خطبته الاخيرة أمام الاعداء في يوم عاشوراء وسمعت بناته وأخته زينب كلامه « ... بكين ، وندبن ، ولطمن ..» . وفي رواية المفيد، في وصف اليوم الحادي عشر : (... وحمل نساؤه على احلاس اقتاب بغير وطاء . وساقوهن

كما يساق سبي الترك والروم في اسر المصائب والهموم ، ولما نظرت النسوة الى القتلى صحن وضربن وجوههن) وفي مجلس التأبين الذي أقمنه في الشام وصفن بـ : (الفاطميات اللاطمات على الخدود ، والصارخات) .

بقي هنا سؤالان :

السؤال الاول : هل أن عمل اهل بيت الحسين حجة ؟

والجواب من وجهين :

أولاً : لو اعترفنا بأن عمل اهل بيت الحسين ليس بحجة طالما لم يكونوا معصومين، فإن تقرير الإمام الحسين في حياته وتقرير الامام زين العابدين والامام الباقر بعد شهادة الامام الحسين حجة ، وقد كن النسوة يلطمن بمحضر من الأئمة فلم ينهوهن عنه ولو نهاهن أحد منهم لامتنعن ولوصل إلينا فتقريرهم لعملهن حجة يكفي دليلاً على الجواز .

ثانياً : لا نعترف بأن عمل اهل بيت الحسين ليس بحجة بل عملهم حجة وان لم يكونوا معصومين كما أن اعمال الفقهاء وأقوالهم حجة تكشف عن الأحكام الشرعية مع انهم ليسوا بمعصومين إذ لا يشترط في حجية عمل كل احد وقوله أن يكون معصوماً وإلا لوجب إلغاء الإسلام كله حتى في عصور المعصومين لأنه لم يتمكن تسلم الاسلام من المعصومين مباشرة إلا نفر من الناس وأما الجماهير المسلمة في كل جيل فإنها تسلمت

الاسلام عن غير المعصومين ولم يعتبر الأئمة عليهم السلام سوى الوثاقة فيمن تؤخذ عنه معالم الدين وإذا كانت الوثاقة وحدها تكفي لجعل عمل انسان وقوله حجة فلا أقل من أن يكون عمل اهل بيت الحسين الذين ولدوا وترعرعوا تحت تربية عدد من الأئمة الأطهار ، وبلغوا اقصى مراتب العدالة حجة يكشف عن رأي الشرع .

ومما يدل على حجية عمل اهل بيت الحسين عليه السلام أن الإمام الصادق عليه السلام استدل على جواز شق الجيب بعمل الفاطميات في حديثين :

احدهما ما رواه في جواهر الكلام عن خالد بن سدير قال: (سألت أبا عبد الله عن رجل شق ثوبه على ابيه أو على أمه أو على اخيه أو على قريب له ؟ فقال : « لا بأس بشق الجيوب، قد شق موسى بن عمران على اخيه هارون .. ولقد شققن الفاطميات الجيوب ولطمن الخدود الفاطميات على الحسين بن علي .. » .

وثانيهما : ما رواه الشيخ الطوسي في التهذيب عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: «.. ولقد شققن الجيوب الفاطميات، ولطمن الخدود الفاطميات على الحسين بن علي ، وعلى مثله تلطم الخدود وتشق الجيوب » .

السؤال الثاني : ان الامام الحسين نفسه نهى نساءه عن

جميع هذه الأعمال ـ في ليلة عاشوراء ـ حين اوصاهن بقوله : « يا أختاه ، يا أم كلثوم ، يا فاطمة ، يا رباب انظرن إذا قتلت ، فلا تشققن علي جيباً ولا تخمشن علي وجهاً ولا تقلن هجراً » .

والجواب من وجهين :

أولاً : انه كان ينهى نساءه ـ في هذا الكلام وأمثاله ـ عن الجزع قبل مقتله ساعة قتله، اتقاء شماتة الأعداء، فلا يشمل نهيه غير تلك الساعة حيث لا تكون شماتة الاعداء ، وقد أعرب الامام نفسه عن هذا السبب في ليلة عاشوراء، لما اهوت زينب الى جيبها فشقته ، ولطمت على وجهها وصاحت ، قال لها الحسين : « مهلاً ، لا تُشمتي القوم بنا » . وفي يوم عاشوراء حين جزعت قال لها الامام: «لا تشمتي بنا الاعداء» فالنهي ـ منذ صدوره ـ كان محدوداً بوقت خاص لسبب خاص ، وهذا هو ما فهمته نساء الامام من وصيته ، فتجلدن في تلك الساعة المتأزمة، وجزعن بعدها حتى قبضهن الله إليه.

ثانياً : ان الامام قيد النهي بوقت معين، هو وقت الشهادة، حيث قال : « .. إذا قتلت .. » فخصص النهي بحين الشهادة، لأنه كان يعلم : أن ساعة شهادته يزحف العدو على الخيام ، وينتشر الاطفال في المعركة تحت سنابك الخيل ، وحراب العدو ، فتحين مسؤولية النساء عن جمع الاطفال وإنقاذهم من العدو الاثيم . فيكون عليهن أن يتجلدن في تلك الساعة ،

لا لحرمة الجزع عليهن ، بل لأنهنّ لو انصرفن في تلك الساعة الى النياحة والبكاء ، تعرضن هن وأطفالهن للخطر ، فلا يهبط الليل إلا على مصارع عدد من الاطفال والنساء ، فكان الامام بهذه الوصية ، يروم الاحتفاظ على يتاماه وأياماه . فهي وصية موقتة ومخصصة للعمومات بالنسبة الى ساعة معينة فتكون أشبه بوصيته لابنته سكينة عندما وجدها تبكي في وداعه للنساء فصبرها بكلام نظم في البيتين التاليين :

لا تحرقي قلبي بدمعك حسرة   ما دام مني الروح في جثماني
فإذا قتلت فأنت أولى بالذي   تأتينه يا خـــيرة النسوان

وإذا كان اللطم مباحاً بعنوانه الثانوي لتجديد العزاء على الامام الحسين عليه السلام يكون اللدم مثله بعموم الملاك والاولوية القطعية .

ضرب السلاسل

وموكب السلاسل يتكون بتجمع عدد غفير من النـاس ، في مركز معين ، يقيمون فيه مأتماً على الامام الحسـين ، ثم يجردون ظهورهم – بلبس زي خاص من القماش الأسود ، الذي فصل خصيصاً لهذا الغرض – ويقبضون بأيديهم مقابض حزمة من السلاسل الرقيقة فيضربون اكتافهم بتلك السلاسل ، بأسلوب هادىء رتيب ، ينظمه قرع الطبول والصنوج ، بطور حـربي عنيف وينطلقون من مركزهم الذي تجمعوا فيه ويسيرون عبر الشوارع إلى مكان مقدس ينفضون فيه وهم يهزجون – في كل ذلك – بأناشيد حزينة او يهتفون : « مظلوم . . حسين . . شهيد . . حسين . . عطشان . . حسين . . » .

وقد ابتكر الأتراك هذا الموكب ثم أخذه منهم مختلف جنسيات الشيعة وجعلوا يمارسونها اينما حطت لهم قدم .

وتكييف هذا الموكب لجوّ المدينة الذي تعيشـه ، واثارة

العواطف التي تلامسه اكثر من المأتم ، لأنه هيجة عمليـــة ، وأكثر من موكب اللطم ، لأنه يحتوي على عنف عاطفي أكثر

وهذا العمل مبـــاح بعنوانه الأولي ، ومستحب بعنونه الثانوي جزعاً على الامام الحســين عليه السلام لأن كل نوع من أنواع الإنفجار العاطفي على الحسين محمود ، ما لم يبلغ درجة اهلاك نفس او طرف ، والضرب بالســـلاسل على الاكتاف نوع من انواع الإنفجار العاطفي فهو محمود . كما أنه لون من ألوان الجزع المستحب في مصيبة الإمام الحسين عليه السلام .

بل الذي يستفاد من مجمــوع الروايات : ان جميع أقســام التألم من المصاب ، محبوب في مصيبة الحسين عليه السلام وقد كثرت ألفاظ التألم الواردة في الأخبار حتى تجاوزت الخمسين ، ومنها اللطم واللدم ، اللذان رويا عن زينب الكبرى عليهـا السلام والهلع والقلق ، اللذان وردا في حديث أم أيمن والبكاء بدل الدمع دماً . الذي ورد في زيارة الناحية ، والجزع الذي جاء في حديث إخبار النبي صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام بقتل الحسين عليه السلام وفي خطبة الإمام زين العابدين عليه السلام ـ خارج المدينة بعد رجوعه عن كربلاء ـ : « ... أي قلب لا يتصدع لقتله ... من مصيبة ما أعظمها وأوجعها ، وأفجعهـا ، واكظها ، وأفظها ، وأمرها ، واقدحها ... » وعن الإمام المنتظر عليه السلام ـ في دعاء الندبة ـ : « ... فعلى الأطائب من أهل بيت محمد وعلي ، واياهم فليندب النادبون ، وليصرخ الصارخون ويضج

الضاجون ، ويمج الماجون ... هل من جزوع فأساعد جزعه إذا خلى ؟ هل قذيت عين فساعدتها عيني على القذا ...» وإذا حمد الجزع على الإمام الحسين عليه السلام فان الضرب بالسلاسل على الأكتاف ، لا يعدو الجزع بل يكون أحد مراتبه ، وإذا عظمت الفاجعة حتى يكون تصدع القلوب لها أمراً متوقعاً ، بحيث يستفهم الامام السجاد عن ذلك القلب القاسي الذي لا يتصدع لقتله ، فان الضرب بالسلاسل على الاكتاف ، من أهون الأمور بالنسبة اليه . وإذا للامام السجاد ان يهلع حتى كادت روحه أن تزهق فتداركته عمته زينب بقولها : « مالي أراك تجود بنفسك ، يا بقية جدي وأبي وأخوتي ؟ ... » فان الضرب بالسلاسل على الأكتاف ، لا يكون شيئاً مذكوراً يتحدث عنه .

بالإضافة إلى انه ليس في اللطم واللدم والضرب بالسلاسل على الاكتاف مضرة توهم الحرمة لأن هذه الأعمال لا تضر بالجسم ، بل أنها تنفع لأنها تثخن الجلد وتصلبه وعمليات تصليب الجلد من أنواع الرياضات القاسية ، التي يتعاطاها هواة الرياضيات الشديدة .

التمثيل

وتمثيل فاجعة الطف ، لا يخضع غالباً لوقت محدود ، إذ لا يستطيع الممثلون – مهما نبغوا في الطاقات الجسدية والفكرية – إلا تمثيل فصل واحد منه ، او عدد من فصوله . ويكون تمثيله قسمين :

القسم الأول التمثيل الموضعي ، الذي يُعدله مسرح محدود، تجرى عليه حوادث ذلك الفصل او تلك الفصول .

القسم الثاني التمثيل المتجول – ويقتصر غالباً على استعراض فصل واحد – فيأخذ الممثلون ادوارهم ويركبون الخيول – مثلاً ثم يسيرون في الشوارع والمجامع بينما يمارسون ادوارهم . ومن الطبيعي ان لا يخضع للتمثيل المتحرك سوى فصول معينة من واقعة كربلاء .

وحيث ان ملحمة كربلاء كارثة رهيبة ارتفعت فوق

مستوى التاريخ فحملت كل شيء منها فكرة وفلسفة يكون تمثيلها اغنى التمثيليات التي يمكن ان يبدعها عقل انسان .

•

وفي تمثيل واقعة الطف ما في تمثيل كل واقعة من تجسيد وتركيز ولهذا تكون التمثيليات التي تعرض فصولاً عن واقعة الغاضرية ذات أثر بالغ قد يكون اثبت من آثار جميع الشعائر الحسينية – لو استثنينا موكب التطبير – لأن عقول اكثر الناس في عيونهم فلا يقدرون على تصور الواقعة بمجرد سماعها ولكنهم يتصورونها عند مشاهدتها ، فيتفاعلون بها . ومن اجل هذا الواقع ، نرى أن تأثير النـاس – حتى اكثر مفكريهم – بمشاهدة معركة سباب في زقاق ضيق ، اكثر من تألمهم بسماع كارثة تاه بها الزمن ، ونزح بها التاريخ بعيداً ، فلو تركنا التاريخ يعرضها – بأسلوبه الجـاف – كما يعرض الوف الكوارث التي عاصرتها ، او سبقتها ولحقتها ، لم تقدر على التفاعل مع حوادث جيلنا ، وتمويج حياتنا ، فلا بد من اخراجها من ملفات التاريخ وتجسيدها ، حتى تعود اليها الحياة من جديد ، فتصبح قطعة حية من حياتنا المعاصرة . ولا يطبق تجسيدها شيء كما يجسدها التمثيل .

وتكشف عن مدى قدرة التمثيل على احياء كارثة ، وعمق آثاره الفكرية والنفسية ، الدموع الغزيرة التي يستحلبهـا بلا تكلف والضجيج الذي يرافق جميع فصول التمثيل – من أوله

إلى آخره ـ ما عدا البنود التي تبرز فيها بطولات الهاشميين ومصارع الأعداء .

ولا أظن أن يوجد اليوم ، انسان يحرم التمثيل ، باعتباره خدشاً لكرامة شهداء الطف . إذ الهدف ليس مجرد تمثيل فرد بفرد ، وانما الهدف ابراز صفة خاصة ، او حالة معينة ، بأسلوب يستطيع ابرازها بصورة كاملة ، ولا شك في جواز ذلك كما ورد في القرآن الكريم ، تشبيه نور الله تعالى بمشكاة ، وورد في أحاديث صحيحة ، تشبيه ، أمير المؤمنين عليه السلام طوراً بالأسد وآونة بيعسوب النحل ، وتارة بالزناد القادح ، ومرة بالسيف ، وأخرى بالشجر وورد تمثيل المتقين بالغر المحجلين . دون ان يعتبر في ذلك كله شيء من الإهانة ، لان الاهانة والاحترام من الأمور الإعتبارية التي تتبع العرف والظرف ، وعرف العالم وظرفه ـ اليوم ـ لا يعتبر ان تمثيل شخص ، إلا احتراماً له ، واعترافاً بتفوقه على المستوى العام ، حتى لم يبق في أصحاب الشخصيات العالمية اليوم من يستنكف أن يمثل .

نعم . لا بد أن تحفظ الموازين ، فلا يظهر فاسق باسم إمام او شهيد ولا عاهرة بزي معصومة او محصنة ـ وهذه أمور ثانوية لا تؤثر على أصل التمثيل ـ .

غير أن هناك ، مناقشات فرعية تحوم حول جواز تشبيه

الأدنى بالأعلى ، ولكنها مناقشات بدائية ، تنفشح باشماعة فكر ، وتدل على جواز تمثيل الأدنى والأعلى عدة دلائل ، هي كما يلي :

١ – اصالة الإباحة ، التي لم ينقضها دليل .

٢ – دخوله في عمومات : « مَن بكى او ابكى او تباكى وجبت له الجنة » و « يجددون العزاء عليه كل عام » و « احيوا امرنا ... » بل لعل التمثيل ، من اكمل مصاديق هذه النصوص .

٣ – ان الله تعالى شبه الأدنى بالأعلى ، وسمح بتشبيه الأدنى بالأعلى في عدة مواضع :

فان الله سبحانه ، شبه ابغض خلقه ، وهو « يهوذا الاسخريوطي » بأحب خلقه ، وهو « عيسى بن مريم » حيث نم « يهوذا » على « المسيح » فالقى شبه المسيح على يهوذا ، فصلب يهوذا ، ورفع المسيح الى السماء ، وحكى القرآن التشبيه فقال : « ... وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً . وقولهم : إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم : رسول الله ، وما قتلوه ، وما صلبوه ، ولكن شبه لهم ، وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً

حكيما ... ![1] ... » .

وشبه ملكاً بعلي بن ابي طالب عليه السلام لينظر اليه الملائكة كلما اشتاقوا الى رؤية امير المؤمنين عليه السلام .

وشبه الملائكة الذين انزلهم لنصرة النبي صلى الله عليه وآله يوم (بدر) بعلي بن ابي طالب عليه السلام .

وفي كتاب العلل : روى ابو حمزة ، عن الإمام الباقر عليه السلام في وجه تسمية الإمام المنتظر ، عجل الله فرجه ، بالقائم – ما ملخصه « ان الملائكة ضجت لقتل الحسين عليه السلام فجاءها الخطاب : ان اهدؤا فسأنتقم له ولو بعد حين، ثم كشف الحجاب عن تمثال آخر إمام من ذرية الحسين عليه السلام وهو قائم يصلي ، وجاء الوحي من الله ، بأني سأنتقم بهذا القائم للحسين » .

وعند ما أراد الله تعالى : ان يرى الملائكة عبادة عباده في الأرض ، خلق لكل فرد منهم مثالاً في العرش ، يركع بركوع المؤمن في الأرض ، ويسجد بسجوده ، فاذا رآه الملائكة ، صلوا على صاحب التمثال ، واستغفروا له .

وقد مثل الله تعالى واقعة الطف بكاملها على جناح جبريل

---

(١) سورة النساء (١٥٥ – ١٥٦) .

لآدم عليه السلام لما سأله الله عن سبب جريان دموعه لما ذكر الحسين عليه السلام .

ومثل الله الحسين – فى مصرعه – لموسى بن عمران عليه السلام لما سأل الله عن سبب خلق النار .

وروى السيد بن طاووس في كتاب الاقبال – حول زيارة النبي صلى الله عليه وآله يوم المولود – قائلاً : وفي حديث عن الامام الصادق عليه السلام – وذكر زيارة النبي – فقال : « انه : يسمعك من قريب ويبلغه عنك من بعيد ، فاذا أردت ذلك فمثل بين يديك شبه القبر ، واكتب عليه اسمه ، وتكون على غسل ، ثم قم قائماً ... الخ . »

وارسل ابو حامد الغزالي ، في كتابه : «احياء العلوم» : « ان مضحك فرعون ، الذي كان يتشبه بموسى بن عمران ، كراعي غنم قد لبس مدرعة صوف قصيرة ، وبيده عصى يهش بها على غنمه ، قد انجاه الله من الغرق كرامة لموسى بن عمران لنفس تشبهه به ، فترة قصيرة من الزمن ، وان كان ذلك ، لأجل أن يضحك فرعون وجلساؤه عليه » .

وكما يجوز تشبه الأدنى بالأعلى ، كذلك يجوز تشبه الأعلى بالادنى ، فتشبه المؤمنين بقتلة الحسين عليه السلام مباح ذاتاً ،

ومستحب عرضاً ، إذا كان لاجل الابكاء ، وتجديد العزاء على الحسين ، واحياء امر أهل البيت .

وقد تشبه أمير المؤمنين عليه السلام بعبد الله بن عباس في حرب صفين ، لما بارزه شجاع يخشى منه عليه .

وكان جبرئيل اذا نزل على الرسول صلى الله عليه وآله تشبه بـ (دحية الكلبي) وتشبه جبرئيل ببني العباس ، لما نزل على النبي صلى الله عليه وآله لاخباره بجرائم بني العباس . وكان قد لبس السواد ، وتمنطق بخنجره . وما دل على مرجوحية التشبيه بالكافر غير ظاهر في حرمة التمثيل ، بل ظاهره : ان التشبه الاعتيادي العمل ، الذي ينم عن حب وتقدير حرام ، فتشبه المسلم بغير المسلمين حرام ، لأنه يكون منبعثاً عن عدم ثقته بشخصية المسلمين ، وثقته بشخصية الكفار ، فيتشبه بهم من أجل التبعية لهم ، والاستعلاء على واقعه بتقليدهم . وأما التشبه الموقت ، الذي يكون من أجل كشف عظمة اهل البيت وجرائم اعدائهم ، وارتفاع أهل البيت وانحدار مناوئيهم فلا يكون مشمولاً بهذا الحديث ، بل يكون هذا الحديث مشيراً الى مدلول الحديثين الاخرين عن النبي صلى الله عليه وآله : « من احب قوماً فهو منهم » و « من احب عمل قوم فهو منهم » .

وأما تشبه الرجال بالنساء وبالعكس ، فلم تثبت حرمته ، بأن يتجلل الرجل بأزار أسود من فرعه إلى قدمه ، ويجلس في هودج لتمثيل دور امرأة . وهذا التشبه الصوري ، غير

معلوم الحرمة ، بل الذي تثبت حرمته هـو التشبه الحقيقي بأن يترك الرجل زي الرجال ، ويتخذ زي النساء ، ويتأنث بأن يعد نفسه امرأة – كما يحدث كثيراً في بعض البـلاد الاسلامية وغـيرها – وبهذا أفتى المحقق القمي في « جامع الشتات » والشيخ الأنصاري في كتاب « المكاسب » والمحقق النائيني في فتواه الشهيرة – التي اتفقت عليها كلمة الفقهاء وهي مطبوعة منتشرة والمحقق المامقاني في رسالته الخاصة بالشعائر الحسينية .

قال المحقق القمي في كتابه « جامع الشتات » ما مترجمه : « المستفاد من الأخبار المانعة ، من تشبيه الرجال بالنساء ، هو الخروج من زيّ أحدهما ، والدخول في زي الآخـر ، بحيث يعد الرجل نفسه من صنف النساء وبالعكس ، أما التشبه بإمرأة في زمان قليل ، لغرض خاص ، فهـو خارج عن منصرف الأخبار » .

وقال المحقق الانصاري الظاهر : ان من التشبيه الممنوع تأنّث الذكر ، وتذكر الانثى ، لا مجرد لبس احدهما لباس الآخر ، مع عدم قصد التشبيه ، ويؤيده المحكي عن العلل : « ان علياً عليه السلام رأى رجلا به تأنث في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له : « اخرج من مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : لعن الله المتشبهين من الرجال

بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال ، وهم المخنثون ، واللاتي ينكحن بعضهن بعضاً » .

وجرى على هـــذا المسلك الفقيه المازندراني في كتابه « الذخيرة » واتفق معه محشوها ، كولده ، والسيد الصدر ، والميرزا الشيرازي الحائري .

وقال المحقق النائيني – في فتواه الشهـيرة ، التي اتفقت عليها كلمة فقهاء عصره – : « الظاهر عدم الاشكال في جواز التشبيهات والتمثيلات التي جرت عادة الشيعـــة الامامية ، باتخاذها لاقامة العزاء والبكاء والابكاء – منذ قرون – وإن تضمنت لبس الرجال ملابس النساء على الأقوى ... » .

وقال آية الله المامقاني : « ... ومن أوضح الأشياء لدى كل محيط بالأخبار وكلمات الفقهاء ، أنه لم ترد آية ، ولا رواية – ولو كانت ضعيفة او مرسلة – بحرمة تشبه شخص بشخص ، وتمثيل قضية شخصية خاصة ، إن كان لغرض عقلائي . وكل من يدعي ورود آية او عبارة فقيه في هذا الباب ، فليأت بها ولن يستطيع أن يأتي بها ، وكيف يمكن أن يكون الفقهاء قد منعوا عنه ، مع ان أول من مثل واقعة الطف وأمثالها وأشاع التمثيل فيها ، هو العلامة المجلسي ، الذي هو اكثر العلماء اطلاعاً على الأخبار وكلمات الفقهاء . وكل من جاء بعده من علماء البلاد امضى فعله ولم ينكر عليه ؟ ... » .

وقال العلامة الشيخ عبد الحسين الحلي النجفي، في كتابه: «النقد النزيه» : «ان التشبيه المدعى وقوعه في التمثيل، هو تجليل الرجل بازار اسود، من قرنه ألى قدمه وهي بهيئته وملابسه الرجالية، ليترائى للناظر إليه انه امرأة، وهذا مما لم يثبت في الشرع تحريمه، ولا وجدنا قائلاً بذلك نصاً أو ظهوراً» ثم اضاف قوله : «وقد يلهج القاصرون، بكون تشبه رجل بالحسين عليه السلام توهيناً له، سيما إذا لم يكن من اهل الصلاح والشرف، وهذا مما لا يخفى على أحد كونه تمويهاً، فإن التوهين عنوان لا يتحقق بفعل ما بدون قصده، كالظلم والتأديب، ووقوع التوهين قهراً، مع كون الفعل بذاته يقع على وجوه كثيرة مما لا يعقل نعم، قد يحصل التوهين القهري بالقول بدون قصده، لكنه في الافعال الممكنة الوقوع على وجوه لا يمكن تحققه لو خلت عن كل قصد فكيف بالافعال المقصود بها الابكاء عند إلقـــاء مخاطبات الحسين عليه السلام، وحكاية افعاله الواقعة تجاه أعدائه يوم الطف. وقد تضمنت السير والاخبار، تشبه رجل برجل، فيما لا يحصى من الموارد».

ولعل أظهر الروايات الدالة على أن حرمة تشبه الرجل بالمرأة والعكس مختصة بصورة التشبه الدائم، أو التشبه الجنسي، هو ما رواه في الجعفريات عن النبي صلى الله عليه وآله : «انه لعن المتخنثين من الرجال، المتشبهين بالنساء، والمترجلات من النساء المشبهات بالرجال».

والخبر المروي ، عن أصل ابي سعيد العصفري من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لعن الله ـ وأمنت الملائكة ـ رجلا تأنث ، وامرأة تذكرت » .

فالحرام هو تأنث الرجل ، وتذكر المرأة لا مجرد التشبه ولعل من أظهر الروايات دلالة على جواز التشبه الموقت ، ما ورد في عدد من التواريخ والاخبار ، من أن علياً عليه السلام سير عائشة من البصرة الى المدينة ـ بعد حرب الجمل ـ في أربعين امرأة ، ألبسهن العمائم ، والمناطق ، والأردية ، والدروع ، وأمرهن بحمل السيوف والرماح ، صوناً لعائشة عن السفر مع الرجال الاجانب .

إذن فلا مانع من تشبه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال ، في التمثيل ، بل يستحب في تمثيل فاجعة الطف ، مع صون التمثيل عن الاعتبارات الثانوية التي قد تؤثر على الاعتبارات الذاتية الأصيلة .

التطبير

حشود من الفدائيين يتجمعون ليلة عاشوراء هنا وهناك في مراكز مهيبة قد جلل جدرانها السوداء، واشتعلت في جوانبها الأنوار الخافتة الحمراء ، فيحلقون رؤوسهم بالمواسي، ويلبسون الأكفان البيض قطعتين : ازار ورداء ، ويشدون في اوساطهم السيوف ثم يخرجون في مواكب منظمة ، تتقدمهـــا مشاعل حمراء، وتتقدم كل موكب جوقة من اصحاب الطبول والصنوج والأبواق فيقرعون الطبول والصنوج ، وينفخون في الأبواق ، بقوة وعنف، ويهتفون من الصميم : «.. حسين .. حيدر ..» بطور حربي ، تزلزل الارض ، فتقشعر لها الجلود ، وتنتصب لها كل شعرة في جلد كل من يسمعها من قريب او بعيد . وتتجول المواكب اخريات الليل العـــاشر من المحرم ، بين مراكزها، والعتبات او الاماكن المقدسة، الموجودة في بلادها، حتى إذا لاح الفجر، وارتفع صوت الأذان خشعت الاصوات،

فلا تسمع إلا همس المصلين . وإذا قرب طلوع الشمس تتجمع المواكب من جديد، فتصك الطبول والصنوج، وتزعق الابواق، ويهتفون : « . . حسين . . حيدر . . » وتزلزل الارض ، وتقشعر الجلود ، وينتصب كل شعرة في جلد من يسمعها من قريب او بعيد . وتهب المدينة عن بكرة ابيها ، على الطامة الكبرى ، وتزدلف الحشود على جوانب الطرق ، التي تجوبها المواكب وتخرج المواكب من مراكزها ـ وفي كربلاء المقدسة، تخرج عادة من مبنى « المخيم » منسابة الى الأماكن المقدسة التي تنفض فيها، ثم لا ترى إلا السيوف التي تقطر الدم، والرؤوس المخضبة، والأكفان الحمراء، والدموع التي تتحادر بلا استئذان، ولا تسمع سوى دوّي الطبول والصنوج ، وعربدة الأبواق ، وأصوات الهاتفين : «.. حسين .. حيدر ..» وعويل النساء، ونشيج الرجال ، وتنقلب المدينة ـ كلها ـ ملحمة هادئة حزينة ، يختلط فيها الدمع بالدم ، وتتمزق القلوب أسفاً ، على انها لم تدرك الحسين فتنصره ثم تسلي نفسها بأنها إن لم تدرك شخصه لتنصره ، فقد ادركت تاريخه لتنصره فيه ، وتواسيه في المصاب، وتقاسمه المأساة . ثم يتفرق الناس وكل فرد بركان صغير ، في صميمه النار ، وفي قلبه ثورة وفي عقله عبر وعظات، لا تمسح ، لو عصف بها الدهر كله ، وتصببت عليها البحار .

وإنني اتصور أن الإمام الحسين عليه السلام لو بعث لوجد في هذه المواكب انصاراً ، إن لم يكونوا كثيرين فإنهم لا يكونوا

أقل من الانصار الذين يجدهم في غير هذه المواكب .

وموكب التطبير ، اقدر موكب على إعادة ثورة الحسين الى الحياة ، لأن فيها كل ما في الحرب : الطبول ، والصنوج ، والأبواق والسيوف التي تقطر الدم ، والرؤوس المخضبة ، والأكفان الحمراء . والهيجة التي يحدثها موكب التطبير لا يحدثها أي خطيب ولا موكب ، حتى موكب التمثيل، لأن موكب التمثيل ، وإن كان أدق في استعراض المأساة، إلا انه تعوزه الواقعية ، فكل من ينظر إليها يعلم انها تمثيلية لا واقع فيها ، بينما يكون موكب التطبير غنياً بالواقعية ، فها هي تلك السيوف التي تقطر الدم ، والرؤوس المخضبة والأكفان الحمراء .

وهذه الواقعية الملموسة، هي التي توفق موكب التطبير لأن يحلب الدموع الغزار ، اكثر من غيره ، ويركز ثورة الحسين في الاعماق ، اقوى من غيره .

وأما جواز التطبير على الامام الحسين عليه‌السلام ، فهو جايز ذاتاً ، ومستحب عرضاً ، ولا يناقش فيه فقيه تأمل وتدبر ، ولكن حيث وقعت حوله مناقشات بدوية نعمد فيه الى شيء من التفصيل .

وقبل كل شيء لا بد أن نوضح جانباً من عظمة فاجعة الطف :

فمأساة الإمام الحسين عليه السلام ، لم يكن من نوع بقية المآسي ، التي وردت على الانبياء والأوصياء . فإن النبي والوصي والزهراء والزكي وثمانية من الأئمة من ذرية الحسين عليهم السلام ، قتلوا بالسيف او السم ، وكثير من الأنبيـــاء والاوصياء وخيار المؤمنين الصالحين ، نشروا بالمناشير ، أو قرضوا بالمقاريض ، او سلخت جلودهم ، او احرقوا ، او طرحوا في الزيت المغلي ، حتى تفرقت لحومهم وعظامهم . فما بكت عليهم السماء والارض كما بكت على الحسين ، ولم يتغير الكون كما تغير على الحسين عليه السلام .

فلما قتل الحسين عليه السلام بكاه كل شيء .

ففي أمالي الصدوق ، عن العلل ، عن ميثم التمار ، عن أمير المؤمنين عليه السلام : « يبكي عليه كل شيء ، حتى الوحوش في الفلوات ، والحيتان في البحار ، والطير في السماء ، وتبكي عليه الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والسماء والارض ، ومؤمنوا الإنس والجن ، وجميع ملائكة السماوات والارضين ، ورضوان ، ومالك ، وحملة العرش ، وتمطر السماء دماً ورماداً ... » .

وروى الشيخ في الأمالي ، عن الحسين بن أبي فاختة ، عن أبي عبد الله عليه السلام ، انه قال : « ... أن أبا عبد الله عليه السلام لما قتل بكت عليه السماوات السبع ، والارضون السبع

وما فيهن، وما بينهن، ومن تتقلب في الجنة والنار، وما يرى وما لا يرى ... » .

وفي جلاء العيون ، عن أبي بصير ، عن ابي عبد الله عليه السلام « ان الحسين عليه السلام ، بكى لقتله السماء والأرض ، واحمرّتا ولم يبكيا على احد قط ، إلا على يحيى بن زكريا ، والحسين ابن علي » .

وفي جلاء العيون – ايضاً – عن علي بن مسهر القرشي ، قال : « حدثتني جدتي ، انها ادركت الحسين بن علي ، حين قالت : فمكثنا ستة وتسعة أشهر ، والسماء مثل العلقة ، مثل الدم ما ترى الشمس » .

وعن علي بن الحسين عليه السلام ، قال : « ان السماء لم تبك منذ وضعت ، إلا على يحيى بن زكريا ، والحسين بن علي . قلت : أي شيء بكاؤها ؟ قال : كانت إذا استقبلت الثوب وقع على الثوب شبه أثر البراغيث من الدم » .

وروى ابن شهر آشوب في المناقب ، عن نظرة الأزدية ، قالت : « لما ان قتل الحسين ، مطرت السماء دماً ، فأصبحت وكل شيء لنا ملاء دماً » .

وعنها : « لما قتل الحسين ، أمطرت السماء دماً ، وحبابنا وجرارنا ، صارت مملوءة دماً » .

وعن طرفة بن عبد الله ، قال : « امطرت السماء يوماً نصف النهار ، على شملة بيضاء ، فنظرت فإذا هو دم ، وذهبت الإبل لتشرب فإذا هو دم ، فإذا اليوم الذي قتل فيه الحسين » .

وعن ام سليم قالت : « لما قتل الحسين ، مطرت السماء مطراً كالدم ، احمرت منه البيوت والحيطان » .

ومن خطبة العقيلة زينب في الكوفه : « ... أفعجبتم إن مطرت السماء دماً. ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » .

وفي بعض زياراته : « ... السلام عليك يا من بكت عليه السماء بالدماء .. » .

و « بكته السماء ومن فيها ، والارض ومن عليها ... »

وفي تاريخ ابن عساكر ، والصواعق المحرقة لابن حجر : ان الدم مطر من السماء يوم قتل الحسين ، صبغ البيوت والحيطان ، وبقي أثره مدة طويلة .

وفي تاريخ ابن عساكر ، والصواعق المحرقة لابن حجر لما قتل الحسين : لم يرفع حجر إلا وجد تحته دم عبيط .

في جلاء العيون ، عن ام حيان ، قالت : « لما قتل الحسين أظلمت علينا ثلاثا ، ولم يمس احد من زعفرانهم شيئاً فجعله على وجهه إلا احترق ، ولم يقلب حجراً في بيت المقدس ، إلا أصبح تحته دماً عبيطاً » .

وفي تاريخ ابن عساكر ، والصواعق : « ولما دخل رأس الحسين الى قصر الإمارة ، سالت الحيطان دماً » وفي كامل ابن الاثير : « ... وخرجت نار من بعض جدران قصر الإمارة، وقصدت عبيد الله بن زياد ، فقال لمن حضر عنده : اكتمه ، وولى هارباً ... » .

وفي الكامل : « ... ومكث الناس شهرين او ثلاثة ، يرون الجدران ملطخة بالدم ، ساعة تطلع الشمس ، وعند غروبها » .

وفي الكامل ، والصواعق، وتاريخ ابن عساكر ، وتذكرة الخواص ، وعدد كبير من التواريخ والمقاتل جمل متفرقة نجمعها فيما يلي :

« ولما قتل الحسين ، إظلمت الدنيا ثلاثة ايام ، واسودت سواداً عظيماً ، حتى ظن الناس : أن القيامة قامت ، وبدت الكواكب نصف النهار، وأخذ بعضها يضرب بعضا ، ودامت الدنيا على هذا ثلاثة أيام » . وفي تاريخ النسوي ، عن الاسود ابن قيس قال « لما قتل الحسين عليه السلام ارتفعت حمرة من قبل المشرق ، وحمرة من قبل المغرب فكادتا تلتقيان في كبد السماء ستة أشهر » . وعن الثعلبي في تفسير قوله تعالى : « فما بكت عليهم السماء والارض » قال : ان الحمرة التي مع الشفق ، لم

تكن قبل قتل الحسين عليه السلام[1] .

وقال السيد ابن طاووس : « ... فلما قتل (الحسين) ارتفعت في السماء ـ في ذلك الوقت ـ غبرة شديدة سوداء مظلمة ، فيها ريح حمراء لا ترى فيها عين ولا أثر ، حتى ظن القوم : ان العذاب قد جاءهم ، فلبثوا كذلك ساعة ، ثم انجلت عنهم » .

وفي جلاء العيون ، عن الفتح بن عابد : « كنت في كل يوم افتت الخبز لتأكله العصافير فتأكله ، فلما كان يوم عاشوراء فتت لها الخبز فلم تأكله ، فعلمت : انها لم تأكله لعزائها على الحسين » .

وفي الكامل ، عن الحارث الاعور : قال علي عليه السلام : بأبي وأمي الحسين ، المقتول بظهر الكوفة ، والله كأني أنظر الى الوحش مادة اعناقها على قبره ، من انواع الوحش ، يبكونه ويرثونه ليلاً حتى الصباح ، فاذا كان كذلك ، فإياكم والجفاء » .

وروى ابن قولويه في الكامل ، عن رجل من اهل بيت المقدس ، انه قال: «والله لقد عرفنا أهل بيت المقدس ونواحيها عشية قتل الحسين بن علي قلت: وكيف ذلك؟ قال: ما رفعنا حجراً ولا مدراً ولا صخراً ، إلا ورأينا تحتها دماً يغلي ، واحمرت الحيطان كالعلق ، ومطرنا ثلاثة ايام دماً عبيطاً » .

---

(١) الظاهر أن المراد شدة الحمرة .

وفي الكامل – أيضاً – : « وانكسفت الشمس ثلاثاً ، ثم انجلت » .

وروى الصدوق في الآمالي والعلل ، عن جبلة المكية ، عن ميثم التمار انه قال : « ... يا جبـــلة ، اذا نظرت الى الشمس حمراء ، كأنها دم عبيط ، فاعلمي : ان سيد الشهداء : الحسين قد قتل . قالت جبلة : فخرجت ذات يوم ، فرأيت الشمس حمراء ، كأنها دم عبيط ، فأعلمي : ان سيد الشهداء : الحسين قد قتل . قالت جبلة : فخرجت ذات يوم ، فرأيت الشمس على الحيطان ، كأنها الملاحف المعصفرة ، فصحت وبكيت ، وقلت قد والله قتل سيدنا الحسين » .

وفي الصـــواعق المحرقة ، والمقتل للخوارزمي ، والكواكب الدرية ، والاتحاف ، وتاريخ الخلفـــاء ، ومجمع الزوائد وكثير من المقاتل :

« . . . ولما قتل الحسين ، انكسفت الشمس ، حتى لم ير لها نور . . . » .

وذكر ابو نعيم الحافظ ، في كتاب دلائل النبوة : « ... مما ظهر يوم قتله : (الحسين) من الآيات – أيضاً – أن السماء اسودت اسوداداً عظيماً ، حتى رؤيت النجوم نهاراً ... » .

وفي الصواعق المحرقة : واخرج ابو الشيخ : « ... وان

السماء احمرت لقتله : (الحسين) ، وانكسفت الشمس حتى بدت الكواكب نصف النهار ، وظن الناس : ان القيامة قد قامت ...[1] » .

---

(١) ودلالة هذه التواريخ والروايات ، على كسوف الشمس لقتل الامام الحسين عليه السلام واضحة صريحة ، غير ان هناك من يشق عليه ان يعترف بعظمة الإمام الحسين ، الى هذا الحد ، الذي يؤثر على الأجرام السماوية ، ولكنه يهاب المسلمين أن يصارحهم بضعف عقيدته ، فيقول : ان الشمس لاتكسف لموت انسان . ويستدل لرأيه برواية هي :

روى عن علي بن عبد الله ، قال سمعت ابا الحسن موسى عليه السلام يقول : « لما قبض ابراهيم بن رسول الله عليه السلام جرت فيه ثلاث سنن ، اما واحدة ، انه لما مات انكسفت الشمس، فقال الناس : انكسفت الشمس لفقد ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فصعد رسول الله المنبر فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، يجريان بأمره مطيعان ، لا ينكسفان لموت احد ولا لحياته ، فاذا انكسفتا او واحدة منهما فصلوا ، ثم نزل فصلى بالناس صلاة الكسوف، فلما سلم ، قال : يا علي قم ، فجهز ابني ، فقام علي فغسل ابراهيم ، وحنطه وكفنه ، ثم خرج به ، فمضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى انتهى به الى قبره ، فقال الناس : إن رسول الله =

. . . .

= نسي أن يصلي على ابراهيم ، لما دخله من الجزع عليه ، فانتصب قائماً ، ثم قال : أيها الناس ، أتاني جبرئيل بما قلتم ، زعمتم : اني نسيت أن أصلي على ابني ، لما دخلني من الجزع . الا وانه ليس كما ظننتم ، ولكن اللطيف الخبير ، فرض عليكم خمس صلوات ، وجعل لموتاكم من كل صلاة تكبيرة ، وامرني أن لا أصلي إلا على من صلى ... » .

وأكثر الظن : ان هذه الرواية موضوعة لأمور :

١ ـ معارضة صدره للأخبار والتواريخ الكثيرة ، التي تدل على انكساف الشمس لقتل الامام الحسين عليه السلام ، وقد سبق بعضها ومعارضته لخطبة الامام امير المؤمنين عليه السلام ، في وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول فيها : «... وكسفت الشمس لموته ... » .

٢ ـ معارضة ذيله للأحاديث الدالة على ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلى بنفسه على ابراهيم كصحيحة عبد الله بن بكير التي رواها الشيخ في التهذيب ، عن عبد الله بن بكير ، عن قدامة بن زائدة . قال : سمعت ابا جعفر عليه السلام يقول : « ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلى على ابنه ابراهيم ، فكبر خمساً » .

٣ ـ موافقة ذيله للعامة ، حيث انهم لا يصلون الا على =

وفي الأحـــاديث الكثيرة : ان الأئمة كانوا يحزنون ايام عشرة عاشوراء ، حتى اذا كان يوم عاشوراء ازداد حزنهم ، وجلسوا في بيوتهم يبكون وينحبون ، ويدعون كل شاعر الى انشاد مرثية عن الامام الحسين عليه السلام ، وكل موال يزورهم يدعونه الى البكاء على الحسين عليه السلام ، وزيارة قبره .

= من عقل الصلاة فيما الخاصة يصلون على كل مولود ، وعليـه احاديث كما في الحـــدائق عن علي بن يقطين قال : سألت ابا الحسن عليه السلام : « لكم يصـلى على الصبي ، إذا بلغ من السنين والشهور قال : يصلى عليه على كل حال ، الا ان يسقط لغـير تمام » . وما عن السكوني ، عن جعفر عليه السلام ، عن آبائه ، قال : « يصلى على الصبي ويورث ، إذا سقط من بطن أمه فاستهل ... » .

٤ — إعراض المشهور عنه ، وتمسكهم بالأخبار المعـارضة له وإعراض المشهور يوجب وهن الحديث .

وعلى أي حال ، فأكثر الظن ان هـذه الرواية موضوعة ، قد وضعها دعاة بني امية ، الذين شق عليهم انكساف الشمس لمقتل الامام الحسـين عليه السلام ، فذهبوا يكذبون على رسول الله لجحد عظمة ابنائه ، واطفاء نوره ، وقد ابى الله الا ان يتم نوره ولو كره المعاندون .

وفي عديد من الأخبـــار ، دلالة على محبوبية ، مشاطرة الامام الحسين ، في كافة مصائبه ، من الحزن والخوف ، والجوع والعطش وغيرها . فيستحب صوم يوم عاشوراء من الصبـاح حتى ما بعد العصر ، مشاطرة للامام الحسين عليه السلام ، في جوعه وعطشه .

فقد روى الشيخ في المصباح : عن عبد الله بن سنان ، عن الامام الصادق عليه السلام في خصائص يوم عاشوراء : « ... صُمه من غير تبييت ، وافطره من غير تسميتٍ ، وليكن افطارك بعد العصر بساعة ، على شربة من ماء ... » .

مع العلم بأن هذا النوع من الامساك ليس صوماً ، لأن الصوم لابد أن يبتدأ من الفجر حتى المغرب، وانما هو مشاطرة للحسين ، في جوعه وعطشه يوم عاشوراء وقد دعى الامام الصادق عليه السلام ، لمن يقوم بهذه المشاطرة قائلاً : « ... رحم الله شيعتنا ، لقد شاركونا بطول الحزن والحسرة ، وبالامتناع عن الطعام والشراب ، الى ما بعد العصر بساعة » ولو كان صوماً لكان مكروهاً ، لما ورد في الكافي ، في الصحيح عن الامام الصادق عليه السلام : أنه سئل عن صوم تاسوعاء وعاشوراء فقال : « ... وأما يوم عاشوراء ، فيوم اصيب فيه الحسـين عليه السلام صريعاً بين أصحابه ، وأصحابه صرعى ، افصوم يكون ذلك اليوم ؟ كلا ورب البيت الحرام ، ما هو يوم صوم

وما هو إلا يوم خوف ومصيبة دخلت على اهل السماء واهل الأرض ، وجميع المؤمنين ، ويوم فرح وسرور لابن مرجانة ، وآل زياد ، واهل الشام ... » .

اذن فلا صوم في يوم عاشوراء ، وانما تستحب مشاطرة الحسين عليه السلام في مصابه ، وان الأئمة عليهم السلام كانوا يشاطرون جدّهم الامام الحسين عليه السلام ، فلا يشربون الماء في يوم عاشوراء .

وقد شاطرته من قبله أغنام النبي اسماعيل عليه السلام[1] ففي حديث ان احد الرعاة كان يرعى قطيعاً لاسماعيل ، على ضفاف الفرات ، فاخبره – يوماً – بأن الأغنام – منذ أيام – لا ترعى ولا تنهل ، فناجى اسماعيل ربه في شأنها فنزل جبرئيل ، وقال : يا اسماعيل اسأل الأغنام عن سبب امتناعها عن الرعي والنهل . فسألها اسماعيل عليه السلام ، فأجابت : بأن في هذه الأرض يذبح ابنك : كبد رسول الله ، الحسين عطشاناً ، ونحن لا نشرب الماء ، حتى نواسيه في عطشه » .

وحتى فرس الحسين ، شاطره في عطشه ، ففي المقاتل : أن الحسين لما اقحم فرسه على الماء ، رفع الجواد رأسه ، وأبى أن يشرب الماء قبل الحسين عليه السلام .

---

(١) لقد ثبت في العلم الحديث أن الحيوان يدرك بعض الأشياء ، مما لا يدركه الانسان ، انظر كتاب (الحيوان) .

وقد شاطره في عطشه – قبل استشهاده – ابن عمه مسلم بن عقيل – من حيث يعلم أو لا يعلم – ففي عامة المقاتل : « ... ولما أتى بمسلم بن عقيل إلى دار الامارة ، طلب الماء ، فاتي به ، فكلما أراد أن يشرب ، امتلأ القدح دماً – من الجرح الذي أصاب فمه – وفي الثالثة ذهب ليشرب ، فامتلأ القدح دماً ، وسقطت فيه ثناياه ، فتركه وقال : « لو كان من الرزق المقسوم لشربته » .

وأن أبا الفضل العباس عليه السلام ، لما خاض الشريعة ، وأخذ كفاً من الماء ليشرب تذكر عطاش أخيه الحسين عليه السلام نفض الماء من يده ، مواساة للحسين ، استحق أن يقف الأئمة عليهم السلام ، وشيعتهم خاشعين أمام قبره الى يوم القيامة ، ليرددوا « ... فنعم الأخ المواسي لأخيه ... » .

وهل تستكثر على ابي الفضل مواساته لأخيه في عطشه ، وقد ذكر الشيخ هادى الخراساني النجفي ، في كتابه : « عدة الشهور » « ان امير المؤمنين عليه السلام – عند وفاته – دعى العباس ، فضمه اليه ، وقبل عينيه ، واوصاه واخذ عليه العهد : أنه اذا ملك الماء يوم الطف ، ان لا يذوق منه قطرة واخوه الحسين عطشان » .

وكيف يشرب ابو الفضل الماء ، ومن جفاء المؤمن على اخيه

ان يروى وهو ظمآن . ففي الكافي ، روى معلى بن خنيس عن الصادق عليه السلام – في تعداد حق المؤمن من اخيه المؤمن – : « ... والخامس : أن لا تشبع ويجوع ، ولا تروى ويظمأ ، ولا تلبس ويعرى » .

ولقد تعود المسلمون الايثار في ساعة العسرة – كما وصفهم القرآن بقوله : « .... ويؤثرون على انفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ... »[1] – ففي غزوة « بدر » سقط عشرة من المسلمين صرعى يلفظون انفاسهم الأخيرة ، فحمل احدهم الماء الى اول صريع ، فآثر صاحبه ، فجاء إلى الثاني ليسقيه ، فرفض ان يشرب قبل الثالث ، ولما اتى نحو الثالث امتنع ان يستأثر بالماء دون الرابع وهكذا ابى كل إلا ايثار الآخر على نفسه ، حتى اتى على العاشر ، امره بالرجوع الى الأول ، وعندما رجع وجده ميتاً ، فاسرع نحو الثاني ، وكان ميتاً ، وكذلك طاف عليهم واحداً بعد واحد فوجدهم قد ماتوا جميعاً عطاشى ، واصر كل واحد على ان لا يشرب الماء دون اصحابه .

بل في تفسير علي بن ابراهيم – في ذيل آيات المتخلفين عن

---

(١) سورة الحشر ١٥ .

غزوة تبوك : ان أبا ذر الغفاري ، مر بغدير فيـــه ماء بارد عذب وكان ظمآن ، ولكنه أبى أن يشرب منه قبل رسول الله ﷺ فاحتمل منه في قربة ، وسار حتى إذا دنى من معسكر المسلمين أمر رسول الله ﷺ بأن يحمل إليه الماء ، كي لا يضربه العطش .

ويظهر من بعض الأحاديث أن الله احب مواساة الحسين عليه السلام في مصائبه ، فأشرك بعض أنبيائه في بعضها .

فان سفينة نوح عليه السلام لما وصلت الى كربلاء ، جاءها موج فاضطربت ، حتى كادت أن تغرق ، فنزل جبرئيل وقال : يا نوح ، ان هذه أرض يقتل فيها سبط نبي آخر الزمان، وابن خير الأوصياء .

وان سليمان عليه السلام كان على بساط الريح يجوب الآفاق ، تجري به الريح رخاءاً حيث أصاب ، إذ وصل الى كربلاء ، فطافت به الريح حول نفسه ثلاثا ، ولما عاتب سليمان الريح ، أجابت : بأن في هذا المكان ، يقتل سبط احمد المختار .

وهكذا اشرك الله نوحاً وسليمان في اهوال هذه الارض ، مع السبط الشهيد . كما أشرك الله عدداً من الأنبياء مع الحسين في إسالة دمائهم على تربة كربلاء .

ففي اخبار معتبرة : أن آدم لما وصل الى كربلاء ، وبلغ

مقتل الحسين ، عثر بصخرة فجرى الدم من قدمه ، ثم اوحى الله إليه : إن في هذه الأرض سيقتل ولدك الحسين ، فأردت أن تشاركه في الألم والحزن ، ويراق دمك عليها ، كما يراق عليها دمه .

وإن ابراهيم عليه السلام كان ـ يوماً ـ راكباً جواده ، ماراً بصحراء كربلاء ، إذ كبا فرسه ، وانقلب على الأرض ، فأصيب رأسه بصخرة ، وجرى منه الدم فبدأ ابراهيم عليه السلام بالاستغفار ، وقال : يا رب أي ذنب صدر مني ، حتى استوجبت التأديب ، فنزل جبرئيل وقال : يا ابراهيم ، لم يصدر منك ذنب ، ولكنه موضع يقتل فيه سبط محمد المصطفى ، ونجل علي المرتضى ظلماً وجوراً ، فأراد الله أن تواسيه ، ويراق دمك فيه .

وان موسى بن عمران ، مر بصحراء كربلاء ، مع وصيه يوشع بن نون ، فلما دخلها ، انقطع شسع نعله ، وأدمت الأشواك قدمه ، فسأل الله عن سبب ذلك ، فأوحى الله إليه : ان في هذه الأرض ، يراق دم عبدي الحسين ، فأردت أن يراق دمك فيها .

ففي مجموع هذه الأخبار ، دلالة على أن مصيبة الحسين عليه السلام لم تكن كباقي مصائب الأولين والآخرين ، بل كانت مصيبة ، فجع بها كل ما خلق الله ، مما يرى وما لا يرى ، وأصابت

الناس والحيوانات والجمادات، وبكته الأرض والسماء، وسرت المصيبة الى الآخرة، فبكى لها رضوان ومالك : ولطمت الحور العين، وبكى كل من يتقلب في الجنة والنار . وندب عليها الأنبياء والاوصياء قبل ميلاده وأقيمت له المآتم يوم ولادته .. فلا بد أن يقام لها مقياس آخر، غير مقاييس بقية المصائب، مهما عظمت، وعظم من يصاب بها .

وفي الأخبار الأخيرة، اشعار بأن الله احب أن يشارك انبياءه الحسين، وفي إراقة دمائهم على تربة كربلاء، ولو كان عن غير قصد .

فتكون في هذه الاخبار ـ وحدها ـ كفاية للدلالة على رجحان التطبير، مواساة للحسين وأصحابه .

وقد روى الصدوق في العلل، وابن قولويه في الكامل، عن الإمام الصادق عليه السلام: «ان اسماعيل (:اسماعيل بن حزقيل) كان نبياً من أنبياء الله، بعثه الى قومه، فسلخوا جلدة وجهه ورأسه، فأتاه ملك يخبره : ان الله أمره بإطاعته فيما يريد صنعه فقال : « لي اسوة بما يصنع بالحسين » .

وإذا كان صبر اسماعيل على سلخ جلدة وجهه ورأسه، اسوة بالحسين، مع انه لم يتعمد فعل ذلك بقصد الاسوة، بل سلخها قومه كرهاً، فان التطبير بقصد الاسوة، يكون من أنواع الاسوة .

وفي الحديث : « أن رسول الله ﷺ لما استوحش من عدم البكاء على عمه حمزة ، اجتمع نساء الأنصار يبكين على باب المسجد ، وقد ذهب ثلث الليل ، فلما خرج رسول الله ﷺ ورآهن يبكين ويندبن عمه ، قال لهن : « ارجعن ، رحمكن الله لقد واسيتن معي » . وقد ورد في البكاء ، انه اسعاد للزهراء، وصلة لرسول الله، وأداءٌ لحقه وحقوق الائمة ، ونصرة للحسين واسوة بالأنبياء والائمة والملائكة .

وإذا كان بكاء احد على ميت ، مواساة اهله ، وإسقاطاً لحقوقهم ، لأنه من مظاهر الحزن عليه ، فان الادماء ـ الذي هو اظهر مصاديق الجزع ، أولى بأن يكون اسوة ومواساة ، ومشمولاً بالحديث ، الذي رواه السيد ابن طاووس ، في كتابه « المقتل » عن الامام السجاد : « ... ايما مؤمن ، مسه اذى فينا صرف الله عن وجهه الأذى يوم القيامة ، وأمنه من النار» .

ويدل على جواز التطبير امور :

١ ـ اصل الإباحة ، المحكم عند عدم وجدان نص على الخلاف ، وليس في المصادر الفقهية الموجودة بأيدينا ، دليل على حرمة الجرح أو الادماء .

٢ ـ صدور الادماء من بعض اهل بيت الحسين وتقرير الامام السجاد عليه السلام ففي الخبر المصحح : أن زينب الكبرى لما رأت في الكوفة رأس اخيها على رأس رمح ، « نطحت

جبينها بمقدم المحمل، حتى سال دمها » . وكان في وسع الامام السجاد عليه السلام أن ينهاها عن هذه العملية ، ولكنه لم ينهها ، وعدم نهيه دليل موافقته .

٣ – ورود الأدلة ، بجواز خمش الوجوه ، في مصيبة الامام الحسين عليه السلام ، وخمش الوجه يلازم الادماء ، فاذا جاز خمش الوجه ، فقد جاز الادماء .

فقد ورد عن الامام الصادق عليه السلام في حديث موثق انه قال : « ... على مثل الحسين ، فلتشق الجيوب ، ولتخمش الوجوه ، ولتلطم الخدود .. » .

٤ – صدور الادماء من الامام زين العابدين عليه السلام فقد روى المجلسي في البحار وفي جلاء العيون : « ان الامام زين العابدين ، إذا أخذ إناءاً ليشرب ، يبكي حتى يملأه دماً » وإذا جاز ادماء العيون ، التي هي اهم وأرق الأعضاء فقد جاز التطبير بطريق اولى .

والبكاء بدل الدمع دماً ، قسمان :

القسم الاول : ان تشتد حرارة الباكي ، وتتدفق دموعه حتى تمزق الشرايين الرقيقة في الاجفان ، فيهمي منها الدم .

القسم الثاني : ان ينشج الباكي بالبكاء ، وتتدفق دموعه ، حتى لا تتاح الفرصة للدم ، حتى ينقلب دمعاً ، لأن الدمع هو

بخار الدم ، فاذا قلت الرطوبة وكثر البكاء أو أسرع البكاء اكثر من قابلية تبخر رطوبات الدم فإن الدم نفسه يجري من عروق الأجفان .

٥ – صدور الادماء من الامام المنتظر عليه السلام ، كما في زيارة الناحية : « .. ولا بكين عليك بدل الدموع دماً .. » .

٦ – صدور الادماء من عدد من المعصومين عليهم السلام ، ففي امالي الصدوق ، عن ابراهيم بن ابي محمود ، عن الامام الرضا عليه السلام انه قال : « .. ان يوم الحسين أقرح جفوننا .. »

٧ – تقرير الامام زين العابدين عليه السلام للادماء ، فقد روى السيد ابن طاووس في كتابه : « اللهوف » ولما أخبر بشير بن حذلم ، اهل المدينة بمقتل الحسين عليه السلام ورجوع زين العابدين « ... فما بقيت في المدينة ، مخدرة ولا محجبة ، إلا برزن من خدورهن ، مخمشة وجوههن ضاربات خدودهن ، يدعون بالويل والثبور » .

٨ – تحبيب الأئمة الجزع على الحسين عليه السلام ، فقد روى الشيخ في المصابيح مسنداً عن ابي جعفر عليه السلام فيمن يزور الحسين عن بعد في عاشوراء – : « وليقم من داره المصيبة ، باظهار الجزع عليه » وقد جزع الامام السجاد يوم الحادي عشر كما في كامل الزيارات ، من قوله عليه السلام لعمته : « ... كيف لا أجزع ولا أهلع وقد ارى ابي وعمومتي ، وولد عمي صرعى

لا يوارون » وقد مدح الامام الصادق عليه السلام مسمع كردين بقوله : « اما انك من الذين يعدون من اهل الجزع لنا » . والجزع ضد الصبر، وليس التطبير إلا من اهون معاني الجزع .

٩ – استحباب الادماء في كثير من الموارد في الشريعة ، كالحجامة ، ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « ما مررت بملك من الملائكة – ليلة المعراج – إلا وأوصاني بحب علي بن ابي طالب والحجامة » والاختتان ، ففي خبر السكوني عن ابي عبد الله عليه السلام « قال علي عليه السلام : إذا اسلم الرجل اختتن ، ولو بلغ الثمانين » وكثقب اذن الغلام ، ففي خبر مسعدة بن صدقة : « ان ثقب اذن الغلام من السنة » وكخفض الجواري ، ففي عديد من الأخبار « ان الختان سنة ، وانه من الحنفية ، وان خفض النساء مكرمة » وكخرم انوف النساء للخزائم . وغير ذلك من الموارد الكثيرة التي يجدها المتتبع في غضون الفقه . ولو كان الادماء حراماً ذاتاً لم يكن مجال لتقدم الاستحباب عليه .

إذن ، فالتطبير مباح ذاتاً ، ومستحب تأسياً بالحسين ومواساة له عليه السلام .

وكل ما سبق ، كان استدلالاً فقهياً على جواز التطبير ، وهنالك دليل غير فقهي ، لا يدل على جواز التطبير فحسب، ولا يدل على تقدير الامام الحسين عليه السلام لكل من يتطبر

بغض النظر عن جميع خصوصياته فقط ، وإنما يدل على وجود نوع من المعجزة فيه ، فان الضرب القاسي ، بالسيف المسلول ، على الرأس المحلوق ونزول السيف حتى العظم لا بد أن يقضي على الإنسان ، كما يؤكده الطب القديم والحديث ، ونحن نرى ألوف المتطبرين يطبرون صباحاً ، ثم ينظمون انفسهم في مواكب ، تطوف - في كربلاء - من المخيم الى حرم الامام الحسين ، ومنه الى حرم العباس ، ثم تعود الى حمام المخيم ، وتطوف في بقية البلاد أكثر من مسافة ميل في لفح الصيف وعواصف الشتاء ، وعندما يدخلون الحمام يغسلون رؤوسهم بلا مبالاة طبية ، ثم يخرجون ، ويشتركون في مواكب اللطم والسلاسل حتى الليل ، ولا يصاب أحدهم بمكروه . ولئن سقط أحدهم حين الضرب ، لكثرة نزف الدماء وتغلب الضعف عليه ، فسرعان ما ينهض ، ويواصل دوره في موكب التطبير ، وبقية المواكب . وإنني شخصياً ، لم اسمع برجل سقط فمات ، إلا وتتبعته ، فاذا به يمشي في الشوارع ، ويلعن أعداءه الذين أشاعوا موته كذباً .

يقول الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء ، في كتابه : «الآيات البينات» : «لا ريب أن جرح الإنسان نفسه وإخراج دمه بيده في حد نفسه من المباحات الأصلية ، ولكنه قد يجب تارة وقد يحرم اخرى ، وليس وجوبه او حرمته إلا بالعناوين الثانوية الطارئة عليه وبالجهات والاعتبارات ؟ فيجب

كما لو توقفت الصحة على إخراجه كما في الفصد والحجامة ، وقد يحرم كما لو كان موجباً للضرر والخطر من مرض او موت ، وقد تعرض له جهة تحسنه ولا توجبه . وناهيك بقصد مواساة أهل الاباء ، وخامس أصحاب العباء ، وسبعين باسل من صحبه وذويه حسبك بقصد مواساتهم ، وإظهار التفجع والتلهف عليهم وتمثيل شبح من حالتهم مجسمة أمام عيون محبيهم ناهيك بهذه الغايات والمقاصد جهات محسنة ، وغايات شريفة » .

« أما ترتب الضرر احياناً بنزف الدم المؤدي الى الموت أو الى المرض المقتضي لتحريمه فذاك كلام لا ينبغي أن يصدر من ذي لب فضلاً عن فقيه أو متفقه » .

« أما أولاً : فلقد بلغنا من العمر ما يناهز الستين ، وفي كل سنة تقام نصب أعيننا تلك المحاشد الدموية وما رأينا شخصاً مات بها أو تضرر ولا سمعنا به في الغابرين » .

« وأما ثانياً : فتلك الأمور على فرض حصولها إنما هي عوارض وقتية ونوادر شخصية لا يمكن ضبطها ولا جعلها مناطاً لحكم او ملاكاً لقاعدة ، وليس على الفقيه إلا بيان الأحكام الكلية أما الجزئيات فليست من شأن الفقيه ولا من وظيفته ، والذي علينا ان نقول : إن كل من يخاف الضرر

على نفسه من عمل من الأعمال يحرم عليه ارتكاب ذلك العمل ... » .

والواقع : أن وجود هذه المعجزة البينة ، وفي موكب التطبير يكشف عن أن الامام الحسين عليه السلام ، يوليه عناية خاصة وكفاه دليلاً على الرجحان .

فهرس الكتاب